

فائز بتحدي
التأليف السريع ARABIC

غُرياء في بيتي

Strangers in My House

معاوية الياس إبراهيم
كاتب وإعلامي سوداني

غرباء في بيتي



إصدارات منصة أريد العلمية

غرباء في بيتي

تأليف

معاوية الياس إبراهيم

كاتب وإعلامي سوداني

غرباء في بيتي

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

1445 هـ - 2024 م

الطبعة الأولى

اسم الكتاب: غرباء في بيتي

معاوية إلياس إبراهيم

مقاس الكتاب: 7" * 10"

عدد الصفحات: 82

المدقق اللغوي: معاوية إلياس إبراهيم

التنسيق الفني: عدنان قلعه جي

رقم التسجيل الدولي ISBN :



arid.my | info@arid.my

رعاة الكتاب



المحفل العلمي الدولي
www.almahfal.org



منصة أريد العلمية
www.arid.my



جامعة أريد الدولية
university.arid.my



أكاديمية أريد لعلوم الفضاء
falak.arid.my



وقف الذكاء الاصطناعي
www.waqf.ai



القرية العلمية
sci-village.com



أبصر فايزر للمتميمات الافتراضية
www.abservisor.com



منصة الفاتحة
www.fatiha.id



منصة أبناء العلماء
sos.arid.my



منصة قادرة
www.qadirah.com



أبصر للتعليم الإلكتروني
www.abser.org



بوابة فلسبي للدفع الإلكتروني
www.filspay.com

إهداء

إلى كلِّ من غرَسَ غرساً صالحاً
لينبتَ ويصبحَ ظلّاً ظلّياً لأهله والمارة

إلى كلِّ أمٍ حمّلت كُرْهاً ووضعت كُرْهاً..
إلى كلِّ أبٍ غرَسَ بذرةً فنبتت وتطاولت طوعاً..

ارعوا غرسكم وتحسسوه بين العشي والغداة..
لينبت كزهر الجنان، لا كنبت في الفلاة

الفهرس

3.....	إهداء.....
5.....	الفهرس.....
8.....	الباب الأول.....
8.....	شيءٌ من الماضي.....
11.....	من الريف السوداني إلى عاصمة الضباب.....
15.....	عريس الغفلة.....
16.....	تباين الثقافات.....
18.....	حواجز اللغة.....
19.....	سلوكيات مغايرة.....
20.....	ضغوط مجتمعية.....
21.....	عنصرية وتنمر.....
24.....	العودة إلى الجذور.....
26.....	وداعاً مدينة الضباب.....
27.....	الهجرة إلى الشمال.....
28.....	الفصل الثاني.....
28.....	إدمان خلف الأبواب المغلقة.....
31.....	نقطة تحول.....
38.....	الشبكة العنكبوتية.....
44.....	الفصل الثالث:
44.....	شرح نسيج الأسرة.....

47	صندوق باندورا
47	حتى أنت يا ريم؟! ..
57	اختفاء عاصم ..
63	براءة عاصم واطلاق سراحه ..
64	الفصل الرابع: ..
64	عودة المياه إلى مجاريها ..
67	دروس وعبر ..
68	عائلة أبوبكر ليست استثناء ..
72	المصادر ..
72	المراجع العربية: ..
72	المراجع الإنجليزية: ..
73	حول هذا الكتاب ..
74	عن المؤلف ..

تقديم منصة أريد العلمية

الحمد لله الذي أنزل كتابه، ولم يجعل له عوجاً، وجعل السماء سقفاً وبروجاً، والصلاة والسلام على رسوله الذي أرسله للعالم بشيراً ونذيراً وسراجاً، وعلى آله وصحبه أجمعين.. أمّا بعد:

فاز هذا الكتاب في "تحدي التأليف السريع خلال 24 ساعة" والذي نظّمته منصة أريد العلمية للفترة 1 إلى 3 تموز 2023م، وتم الإعلان عن النتائج ضمن فعاليات حفل ختام المحفل العلمي الدولي الثالث عشر يوم 3 نوفمبر 2023م.

يأتي هذا الكتاب ليسلط الضوء على تجربة فريدة ومؤثرة، تتناول الحياة بين ثقافتين مختلفتين والضغط والتحديات التي تنجم عن هذا التباين. يبدأ الكتاب باستعراض الذكريات والانتقال من الريف السوداني إلى عاصمة الضباب، مع التركيز على التباين الثقافي وحوار اللغة والسلوكيات المختلفة التي يواجهها الأفراد في بيئات جديدة.

يتناول الكتاب أيضاً تأثيرات الهجرة على العائلات، بما في ذلك القضايا المجتمعية مثل العنصرية والتنمر، وضرورة العودة إلى الجذور كوسيلة للحفاظ على الهوية. كما يناقش موضوعات حساسة مثل الإدمان وضغوط الحياة خلف الأبواب المغلقة، وتأثير الإنترنت والشبكات الاجتماعية على الأسر.

في فصوله الأخيرة، يروي الكتاب قصصاً واقعية حول التحديات التي تواجه الأسر، من شرح نسيج الأسرة إلى الاختفاء الغامض لأفرادها، وصولاً إلى استعادة العلاقات والعودة إلى الحياة الطبيعية، مستخلصاً دروساً وعبراً هامة للجميع.

نسأل الله -تعالى- أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به؛ ليكون منارةً هاديًا يضيء للأخريين مسالك العمل التطوعي، وممراتٍ للإبداع والابتكار فيه، وأن يُوفِّقنا إلى ما يحبّ ويرضى، وما توفيقنا إلا بالله العليّ العظيم.

د. سيف السويدي

رئيس منصة أريد العلمية

الباب الأول

شيءٌ من الماضي

غداً في بيتي

جلس بروفييسور أبوبكر إبراهيم، الرجل السبعيني، الذي تقاعد للتو يتأمل من نافذة منزله المطل على البحر في مدينة الإسكندرية يعيد شريط ذكرياته، بعد مسيرة أربعة عقودٍ ونيف عمل فيها أستاذاً جامعياً في لندن، مدينة الضباب.

ركب بروفييسور أبوبكر، الشهير بـ "مستر جون" نسبةً لاجادته اللغة الإنجليزية، حصان خياله ليسافر إلى الماضي، حيث بدأ رحلته منفتحاً على العالم الخارجي عندما حزم حقائبه ليتجه صوب أوروبا، حلمه الأكبر.

كان أبوبكر وقتها قد أنهى للتو دراسته الثانوية وقد كان حائراً: أبحث عن وظيفة لاعانة عائلته المكونة من سبع بناتٍ وأخٍ وحيد، هو الأصغر سناً بعد مرض والده العائل الوحيد، أم يواصل تعليمه الذي كان شغوفاً به حد الجنون!

كانت عائلة أبوبكر تسكن قريةً صغيرةً في وادي حَلْفَا في أقصى شمال السودان، على بعد حوالي 910 كيلومترات من العاصمة الخرطوم شمالاً، و345 كيلو متراً جنوب مدينة أسوان بمصر على ضفاف البحيرة النوبية، وتعتبر بوابة السودان الشمالية، وأولى مدنه المرتبطة بمصر وما بعدها شمالاً منذ قرون طويلة.

قامت حلفا في منطقة شهدت حضارات قديمة منها الحضارة النوبية، فالرومانية والمسيحية، والإسلامية، وتأثرت ببناء السد العالي في منتصف القرن العشرين في مصر، حيث غمرتها مياه بحيرته وهُجّر سكانها إلى شرق السودان في عددٍ من القرى، أطلق عليها مجتمعة "حلفا الجديدة"، قبل أن يُعاد إحيائها مجدداً وتطويرها على ضفاف بحيرة السد المعروفة باسم بحيرة النوبة (بحيرة ناصر في مصر). (1)

وفقاً لبعض الروايات فإن اسم حَلْفَا مشتقٌ من موقعها على وادٍ يكثر فيه نبات الحلفاء، إلا أن هناك من يقول بأن كلمة وادي هي تحريف للفظ "آد" النوبية وتعني البحر أي النهر. وكانت حلفا تسمى آد حلفا، ثم حُرّف الاسم فأصبح "وادي حلفا" (2)، وتُعرف المدينة أيضاً باسم حلفا القديمة، لتمييزها عن حلفا الجديدة الواقعة في منطقة خشم القرية بشرق السودان، كما يطلق عليها اختصاراً حلفا.

غداً في بيتي

نشأ أبوبكر وترعرع بين أقرانه من أبناء حلفا، وهم نوبيون تشربوا من الحضارة النوبية وبنيت شخصياتهم وتكون وجدانهم بالفطرة السليمة، بدءاً مما يطلق عليه في سائر قرى السودان "الخلوة"، حيث يتلقى الصبيان تعاليم القرآن على يد رجال الدين الذين ما كانوا يتقاضون أجراً.



وادي حلفا (المصدر: موقع النيلين)

حفظ أبوبكر أجزاء مقدره من القرآن الكريم، ودرس الخط العربي، ثم التحق بمدرسة قريته الأولية، ثم مدرسة حلفا الوسطى، لينتقل بعدها إلى مدينة وادي مدني في وسط السودان بولاية الجزيرة ليلتحق بمدرسة وادي مدني الثانوية بمعية خاله، الذي كان يعمل آنذاك مفتشاً في وزارة الصحة.

وفور إكمال المرحلة الثانوية، وهي ثلاثة أعوام، طلب أبوبكر من خاله دكتور أحمد إبراهيم أن يأذن له بالعودة إلى القرية، لكن الخال أصر أن يكمل أبوبكر دراسته الجامعية في جامعة الخرطوم التي كان يطلق عليها آنذاك كلية غردون، ووعدته برعاية أسرته بشرط أن يرد الدين بعد تخرجه وحصوله على عمل. وقد أنتصر الخال بعد أن تمكن من اقناع ابن اخته بالالتحاق بالكلية، وقد كان.

من الريف السوداني إلى عاصمة الضباب

مرت الأعوام في كلية غردون سريعة، وكان من حسن حظ أبوبكر أن أختير من ضمن الطلاب المتفوقين في الكلية لنيل شهادة جامعة لندن العريقة. وكانت فرصة مواتية له لمواصلة تعليمه العالي على نفقة الدولة والعمل بدوام جزئي.

إكتملت الاستعدادات للانتقال من الريف السوداني البدائي إلى لندن عاصمة الضباب التي طالما كانت حلماً لأبي بكر. ونظراً لضيق ذات اليد، كلّ ساهم بالمستطاع، ولو كان "دبلة" زواج، أو حفنة من الدولارات، احتفظ بها "لليوم الأسود"، كما يحلو لأهل شمال السودان، الذين تأثروا بعادات الجارة مصر.

ودعت القرية الحاملة إبنها النابغة بين دموع الفرح ومشاعر الحزن لفراقه. فالكل يحب ذاك الشاب الخلق.

وما أن حطت قدما أبوبكر في أرض بريطانيا التي كان يحلم بزيارتها، حاله حال أقرانه من الشباب آنذاك، حتى أحبها من أول نظرة، فراح يجوبها شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، متنقلاً من مدينة إلى أخرى، ومن ريف إلى ريف. زار المتاحف، والمعالم الرئيسية، والجامعات بمفرده، حيث لا صديق ولا قريب وقتها.

بعد أسبوعٍ من الرحلات الاستكشافية في المدن والريف الإنجليزي، استقر بأبي بكر المقام في جامعة لندن، أكبر جامعة تقليدية في بريطانيا وأوروبا، ليمضي فيها أجمل أربعة أعوام في حياته، لم يبرح فيها حرم الجامعة إلا نادراً..

فلا أصدقاء ولا شلليات. لا حانات ولا "ديسكوهات".

كان يتحاشى حتى الاقتراب من المباني التي تحيط بها الحانات، خشية أن تصيبه رائحة الخمر. لله دُرُك يا فتى.

كان صديقه الأوحده هو الكتاب. لذلك تجده ملتحمًا بكرسي المكتبة العريقة، إلى أن تغلق أبوابها كل يوم.

بعد أن حصل أبوبكر على شهادة البكالوريوس في الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، لم يتردد في التسجيل على الفور لنيل شهادة الماجستير في التخصص ذاته.

لمع نجمُ الشاب الأملعي الوسيم أسمر البشرة. واختير في فترة وجيزة ليصبح معيداً، ثم أستاذاً مساعداً في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية. ومن هنا جاء لقبه "مستر جون"، خاصة في أوساط الطلاب العرب الذين ما بخل يوماً بدعهم ومساندتهم وارشادهم، لكونهم يمثلون أسرته الممتدة في مدينة الضباب، حيث لا أقارب ولا أهل.

كان أبوبكر من الجيل الذي يطلق عليه في السودان آنذاك "الجيل الذهبي"، ذلك الجيل الذي حظي بالتعليم في بريطانيا، بعد نيل الاستقلال في العام 1956، حيث منح السودانيون مزايا خاصة.

غداً في بيتي

ضم الجيل أسماء لامعة وأدباء يشار لهم بالبنان رحل معظمهم عن دنيانا في العقد الماضي، منهم العالم اللغوي والشاعر والأديب البروفيسور عبدالله الطيب والأديب والإعلامي الطيب صالح، مؤلف الرواية الشهيرة "موسم الهجرة الى الشمال"، الى جانب الكثير من الإعلاميين والمفكرين والفنانين التشكيليين والأطباء الذين ذاع صيتهم وأسهموا إسهامات مميزة كل في تخصصه.

كان أبوبكر متديناً، محافظاً، وحيّياً. يتجنب الاحتكاك بطالباته، وخاصة الجريئات منهن، وهن كثر. كان مغايراً في سلوكه لأقرانه من أمثال مصطفى سعيد، بطل رواية "موسم الهجرة الى الشمال"، دنجوان عصره الذي ذاع صيته آنذاك، وعرف بمغامراته الرومانسية المتعددة.

فعلى النقيض مما فعل أبوبكر، الذي كان منطوياً على نفسه، ومحافظاً على فطرته الدينية السليمة، تَشَرَّب مصطفى سعيد حضارة الغرب، ولم يستطع مقاومتها، فذاب فيها حتى النخاع، وأخذ يفتعل الأكاذيب وينتحل الأسماء ليوقع الفتيات الأوروبيات في حباله، حيث صار ينتقل من فريسة إلى أخرى، فكانت النتيجة انتحار ثلاث فتيات: آن، شيلا، وايزابيلا.

وصل الأمر أن طارد الدنجوان الأسمر إحدى ضحاياه وتُدعى (جين مورس) لمدة ثلاث سنوات، ولما ملت مطاردته لها ليل نهار، قررت الزواج منه لتدمره وتحطم كبرياه بخيانتها له، فما كان منه إلا أن قتلها.

كان أبوبكر يرتعد كل ما قرأ "موسم الهجرة الى الشمال"، وخاصة مصير بطلها المشؤوم. فقد عاد مصطفى سعيد أخيراً "إلى قرية نائية في شمال السودان بعد سبع سنوات (عجاف) قضاها في السجن - في بريطانيا- لقتله لجين موريس التي لم يستطع إلها سبيلا، وانتهت حياته غرقاً في النيل، وأغلب الظن أن الغرق كان انتحاراً". (3)

على عكس مصطفى سعيد، عاش أبوبكر عقوداً من العزلة التي فرضها على نفسه محافظاً على قيمه وتقاليده الدينية. كان أمياً عندما يكون الحديث عن التكنولوجيا.

لم يكن يملك هاتفاً، ولا وسيلة اتصال، ولا حتى بريداً إلكترونياً، ليس بسبب ندرة الهواتف أو أجهزة الحاسوب آنذاك، ولكن كان يفضل الطرق التقليدية، ولا يتجاوز حدود القلم والكراسة في تدوين ملاحظاته او مخاطبة الغير، إلى أن أصبح امتلاك هذه الأدوات إجبارياً، فاضطر مكرها إلى دخول العولمة باستحياء.

حاول كثيرون التقرب منه والتودد إليه، ولكنه كان منعزلاً، نافراً، وخاصة أمام الجنس "اللطيف". أمضى أبوبكر جل وقته في التحصيل العلمي، وما كان يغادر حرم الجامعة إلا نادراً.

وكما فعل مصطفى سعيد، عاد أبوبكر خلال هذه الفترة الطويلة مرة واحدة الى مسقط رأسه، بعد أن تلقى رسالة بأن والده مريض. وما كانت تلك إلا خطة محكمة حبكتها الأسرة ليعود إليهم لدخول القفص الذهبي.

غداً في بيتي

غادر أبوبكر على متن أول طائرة من مطار هيثرو ليصل الى الخرطوم، المطار الوحيد آنذاك ليستقل القطار مساء إلى وادي حلفا مباشرة. كان القطار يستغرق وقتها 12 ساعة، لكنها رحلة ممتعة، تتخللها محطات تزينها الصناعات اليدوية، وتباع فيها أشهى المأكولات الشعبية وخاصة الحلويات، مثل الزلابية أو "اللقيمات" مع شاي الحليب. أضف إلى ذلك أن في أسفار قطارات السودان أكثر من سبع فوائد، كما يشاع، أولها وأعظمها التعرف على أصدقاء جدد. وهذه شيمة السودانيين.

تذكّر أبوبكر عندما تعرف إلى شباب "طلبوا منه صحبتهم في جلستهم وهم يحتسون الشاي مع "اللقيمات" في محطة أبو حمد الشهيرة، أبيات الإمام الشافعي:

تَعَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَا
وَسَافِرٍ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمِّ وَآكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ
وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَا جِدِ
وَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحْنَةٌ
وَقَطْعُ الْفِيَا فِي وَآكْتِسَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ
بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

مرت الساعات على عجل مع صحبة الأخيار، الأصدقاء الجدد، الذين ودعهم على أمل اللقاء مجدداً.

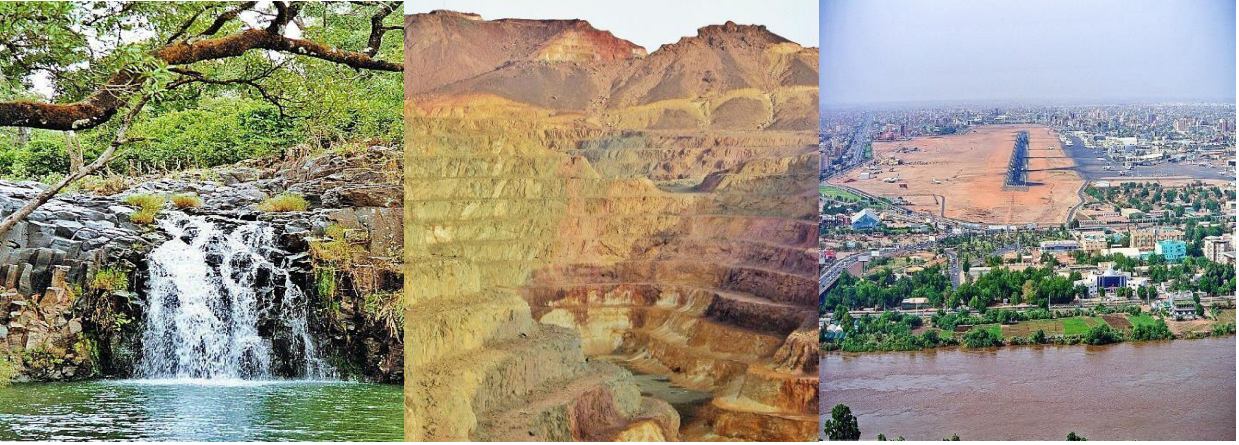
وصل أبوبكر قريته الحاملة وقلبه يخفق حينئذ لها ولأهلها. وما أن وطأت قدماه أرضها حتى خر ساجداً ليقبل تراها. وعند اقتراب السيارة التي أقلته من محطة القطار رأى سرادق تسارعت على إثر رؤيته نبضات قلبه، ظاناً أن أباه قد فارق الحياة، وإذا به يكتشف أنه سرادق لاستقباله، ومآرب أخرى، لشيء في نفس أبيه.

كان لسانُ حال أبوبكر يُردّد مقولة مصطفى سعيد الشهيرة حينما عاد إلى قريته النائبة في شمال السودان، وما أشبه هاتيك العودة بتلك.

قال مصطفى عندما عاد إلى أحضان أهله: "عدت وبني شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل، سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائماً بينهم،

غداً في بيتي

فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقتٌ طويل حتى أحسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي، فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس، ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زماناً في بلاد (تموت من البرد حيتانها). (4)
كان الإحساس ذاته يخالج أبوبكر الذي لم يكن نرجسياً ورومانسياً كمصطفى سعيد. بل كان انطوائياً نوعاً ما، لكنه كان محبوباً وعطوفاً... لم ينسه أحدٌ في القرية.



مناظر من وادي حلفا - المصدر: موقع نابل دوت كوم

كان أبوبكر يتوق للقاء كافة سكان حلفا. فما ترك باباً إلا وقرعه ليلتقي أهل الدار الذين كان يتحرق شوقاً لرؤياهم، صغيروهم وكبيرهم، وهم يبادلونه الإحساس ذاته. وفي تلك الأثناء كان الأب وكل أفراد الأسرة الممتدة يعملون في صمت في غيابه، فقد كانت الخطة محكمة ليفاجئونه بمشروع زواجه شبه المكتمل، وهو آخر من يعلم، إلى أن أسر له صديقه وابن عمه "إبراهيم" ليكشف له عن المخطط، لما لا فهو ملم بكل تفاصيلها كونه كونه الأخ الأكبر للعروس، التي أيضاً جهزت ضمن المخطط.

وبعد جولات مكوكية في القرية للسلام على الأهل جلس أبوبكر معاتباً أهله على هذه الخديعة التي يرونها "مفاجأة سعيدة" ويراها "كابوساً مفرعاً". لكن سرعان ما رضخ لطلب والده الذي أسر إليه أنه يتمنى أن يرى حفيده قبل أن يموت.

عريس الغفلة

إكتملت مراسم الزفاف في عجل. فالأصحاب والأحباب لم يألوا جهداً، ولم يدخروا مالاً لإكمال فرحتهم بإبن القرية البار.

قضى عريس "الغفلة"، كما أطلق عليه البعض تهكماً "أسبوع غسل"، وليس شهراً، ليطير عائداً إلى لندن بحجة انشغاله. (يطلق على مثل عريسنا هذا "عريس الغفلة" في غالب أرياف السودان، لكون كل ما حدث كان مصادفة.) فاختيار الزوجة "سارة" ابنة عمه كان بمشاوره الأب مع إخوانه. ولم تكن العروس تستشار آنذاك. فالقرارُ قرارٌ ولي الأمر.

هكذا هو حال القبائل الريفية في الماضي والحاضر. ولو أن الأمر اختلف قليلاً، لَتُفسد عاداتٌ دخيلة نسيج تلك القبائل، هكذا يرى كبار القوم.



عاد أبوبكر إلى لندن وأمضى أعواماً مليئة بالسعادة بعد أن تغيرت حياته رأساً على عقب، بعيداً عن وحشة العزوبية.

وبعد أن اعتق من هموم ومشاكل حاجياته اليومية من طبخ وغسل وترتيبات منزلية، بعد قدوم من ملأت حياته سعادة وبهجة وراحة وسكينة، وجد أبوبكر متسعاً من الوقت للاجتهاد أكثر لتحقيق طموحاته بمواصلة دراساته العليا.

غداً في بيتي

حصل أبوبكر على درجتي الماجستير والدكتوراة ثم الاستاذية من الجامعة نفسها، وواصل عمله في الجامعة حتى أكمل مسيرته المهنية الأكاديمية، قبل أن يعود إلى أحضان الوطن. أعانه على ذلك وجود شريكة حياته التي كانت ملهمة له طوال مسيرته التعليمية والعملية.

رزق بروفيسور أبوبكر خلال عشرة أعوام بثلاثة أبناء وبنات، أصغرهم بلغ الخامسة عشر ربيعاً عند تقاعد والدهم، وهم إبراهيم (27 عاماً)، أحمد (24)، ريم (18)، وعاصم (15). حمل جميعهم الجنسية البريطانية التي منحت له أيضاً بحكم امتداد اقامته بالمملكة المتحدة.

تباين الثقافات

يُعد الحصول على الجنسية البريطانية لجميع أفراد الأسرة أمراً مهماً لأنه يعكس اندماجهم في المجتمع المحلي. فهو يعكس التقدير الذي تحصل عليه الأسرة نظير مساهماتها في المجتمع والتزامها تجاه البلد الذي أصبح وطناً لهم. كما توفر لهم هذه الجنسية أيضاً حقوقاً ومزايا مختلفة، بما في ذلك الحصول على التعليم والرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية، مما يضمن رفاهيتهم وفرص نموهم وتطورهم.

كما تفتح الجنسية البريطانية الأبواب أمام الأسرة للمشاركة الكاملة في المجتمع. مزايا المواطنة هذه لا تقوي الروابط بين الأفراد والمجتمع فحسب، بل تعزز أيضاً الشعور بالانتماء والهوية المشتركة بين المجتمعات المتنوعة.

لكن تظل الفوارق في الثقافات هاجساً يؤرق مضجع البروفيسور أبوبكر، الرجل المتدين الذي يحرص على تنشئة أبنائه تنشئة دينية.

تعتبر قصة البروفيسور أبو بكر وأولاده مثلاً على النسيج المتنوع والمتعدد الثقافات للمملكة المتحدة. فهو بوصفه أكاديمياً مرموقاً وعالمياً متفهماً في الدين، يؤمن بإيجابية تعدد الخلفيات الثقافية المختلفة. (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (سورة الحجر -13).

وكونهم مواطنين بريطانيين، حظي إبراهيم وأحمد وريم وعاصم بفرص نادرة لتحقيق أحلامهم والاندماج في نسيج المجتمع البريطاني. فوجود مثل هذا التنوع يثري ويقوي المجتمع ككل.

كذلك حظي أربعتهم بامتياز الدراسة باللغة الإنجليزية في لندن من معلمين الإنجليزية هي لغتهم الأم، مما أكسبهم اللكنة الإنجليزية الملكية، والتي لعبت دوراً مهماً في تشكيل خبراتهم التعليمية والثقافية.

نشأ الأبناء الأربعة في هذه المدينة النابضة بالحياة ومتعددة الثقافات، وكانوا منغمسين في بيئة طالما احتفت بالتنوع وعززت فهماً عميقاً وتقديرًا للثقافة الإنجليزية.

غداً في بيتي

أتاح الالتحاق بالمدارس الإنجليزية لإبراهيم وأحمد وريم وعاصم أساساً قوياً في اللغة الإنجليزية. فصقلوا مهاراتهم اللغوية، مما مكّنهم من التواصل بطلاقة وثقة في كل المحافل، وهو عنصر مهم للتفوق الأكاديمي والمهني.

علاوة على ذلك، فإن الدراسة في بيئة ناطقة باللغة الإنجليزية أتاح لهم فرصاً عديدة للنمو والنضج الشخصي والفكري، حيث كانوا يتعاملون مع فئات متنوعة من الأقران والمعلمين.

فمع اللغة الإنجليزية كلغة أساسية للتواصل والتعليم، انجذب أبناء بروف أبوبكر بشكل طبيعي إلى استخدام الإنجليزية بشكل متكرر، مما جعل اللغة العربية تبدو هي اللغة الثانية وأن الإنجليزية هي اللغة الأم.

اعتاد بروفيسور أبوبكر إشراك أبنائه في مختلف الفعاليات التي تنظمها الجامعة والجالية السودانية في بريطانيا. وهذا جعلهم يُنظَرُ إليهم في كثير من الأحيان على أنهم أكثر نضجاً، مقارنة بأقرانهم ممن نشأوا في بيئة مختلفة ووفدوا إلى بريطانيا في سن متأخرة.

الفعاليات الثقافية المتعددة مكنتهم من فهم تراث لندن الثقافي الغني، حيث أنهم تعرّفوا في مراحل مختلفة من أعمارهم على معالم المدينة التاريخية والمتاحف والمعارض الفنية والمسارح. وقد ساهم ذلك في فهمهم وتقديرهم للثقافة الإنجليزية، وزاد من تعميق ارتباطهم بتقاليد وقيم البلاد.

شكلت هذه التجارب المتنوعة هوياتهم وشخصياتهم النابغة ليسطع نجمهم في عالم معقد ومتشابك.

لم يبخل الشيخ الورع على أبنائه مما أنعم الله عليه من "تقى وعلم وتدين" لتتشرب نفوسهم محبة الإسلام، وترسخ في عقولهم حقائقه الكبرى ومحاسنه البديعة، ويظلوا متمسكين بأهداب الدين أينما حلوا. لِمَ لا وقد كان أبوهم يكثر في دعائه لهم في ظهر الغيب من دعاء النبي ﷺ لابن عباس: «اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل"، كلما استذكر الحديث الشريف: "من يُرد الله به خيراً يُفقّهه في الدين".

حواجز اللغة

رغم إجادتهم للغة الإنجليزية وتفوقهم الأكاديمي كان ضعف اللغة العربية، لغة الأبناء الأم يشكل هاجساً لبروفيسور أبو بكر، إذ أن لغتهم العربية ركيكة وقد بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً.

أصبحت طريقة نطقهم للكثير من الكلمات مثار سخرية خاصة أثناء لقاءات الجالية السودانية في بريطانيا.

كانت الأسر السودانية تتوافد من شتى مدن المملكة المتحدة للاحتفال بالمناسبات، خاصة أثناء شهر رمضان الفضيل والأعياد في "بيت السودان"، وهي ثلاث بنايات متجاورة في حي "نايتس بريدج" الشهير، حيث متجر هارودز. وكانت تطل عليهما شقة تسكنها الأميرة الراحلة ديانا قبل الارتباط بالأمير شارلز آنذاك.

كان بيت السودان، الذي أهدته ملكة بريطانيا لحكومة السودان في هذا الحي الراقي، وبيع "في ظروف غامضة"، داراً للسودانيين ومزاراً "للخواجات" ممن عاشوا وعملوا في السودان في حقبة الاستعمار.

كان البريطانيون يتوافدون إلى بيت السودان، وخاصة أثناء احتفالات "أعياد الاستقلال" في مطلع شهر يناير من كل عام، منهم من يتكى على عكازه، ومنهم من ما زال يمشي على قدميه، لكنهم جميعاً يأتون لتوقيع دفتر الزوار في السفارة السودانية التي هي الأخرى عبارة عن مبنى فخم مقابل قصر باكنغهام أهدته الملكة لحكومة السودان، المستعمرة السابقة لبريطانيا.

كان الخواجات، بعد توقيع دفتر الزوار وكتابة عبارات يمتدحون فيها السودان وشعبه (يرونها عبارات وفاء وعرفان ويراها البعض بمثابة اعتذار عن سنين الاستعمار) كانوا يشاركون السودانيين احتفالاتهم بعيد الاستقلال، يا للغرابة!

لكن بعيداً عن السياسة، كان هؤلاء الخواجات يحبون السودان، فتجدهم يبحثون عن المأكولات السودانية الموغلة في المحلية، فيسأل أحدهم عن "أم رقيقة" وهي من الأكلات الشعبية السودانية المنتشرة في أغلب أنحاء السودان وترتبط بالمناسبات الإجتماعية سواء في الأفراح والأحزان والأعياد وسميت أم رقيقة لأنها تكون رقيقة في السماكة والملمس بعد إضافة الويكة (مسحوق البامية المجففة) إلى مرق اللحم أو الدجاج وتؤكل مع الكسرة المصنوعة من الذرة المخمرة. وهناك خواجه آخر يبحث عن المشروبات السودانية الحصرية كالكركيديه الذي استبيح حول العالم، شأنه شأن الصمغ العربي والبول السوداني اللذين طمست هويتهم؟!

وفي هذا الخضم من تلاحق الحضارات والثقافات، يزداد أبناء بروف أبوبكر تشوشاً، فتجدهم حالهم حال الخواجات، يطلقون عبارة ركيكة في هذه المناسبات، فتحسبهم خواجات. فكما ينطق الخواجات الأصليون "أم رقيقة" بحرف الكاف، كانوا كذلك يفعلون.

غداً في بيتي

وهذا ما يضطر بروفيسور أبوبكر ووالدته سارة إلى التبرير بأن هيمنة اللغة الإنجليزية في حياتهم اليومية، بما في ذلك التعليم والتفاعل اليومي مع الأصدقاء، هو العامل الرئيس في الضعف التدريجي في لغتهم الأم.

كان الهاجس أن هذا التحول اللغوي ربما يضع تحديات أمامهم في فهم اللغة العربية وتحديثها بطلاقة، وبالتالي يشكل عقبة في انصهارهم في المجتمع السوداني إذا ما قدر لهم الانتقال للعيش هناك مستقبلاً.

كما أن صعوبة فهم اللغة العربية قد ينشئ لديهم ولدى الآخرين إحساساً بالضيق أو الانفصال عن تراثهم الديني والثقافي واللغوي، مما يجعلهم عرضة لأن يجدوا صعوبة في التواصل مع الأقارب، أو الانخراط بشكل كامل في التقاليد الثقافية العربية والإسلامية.

سلوكيات مغايرة

كان أخطر ما لاحظته البروفيسور أبو بكر أن أبناءه قد بدأوا تقليد سلوكيات زملائهم البريطانيين، مما أثر بشكل واضح على تصرفاتهم.

نتيجة لذلك، بدأ الأولاد الثلاثة في تكوين علاقات مع صديقات إناث، بينما كان لأختهم أيضاً أصدقاء ذكور. لكن قوة الوازع الديني وتنشئتهم في كنف أبيهم، الرجل الورع، كانت دائماً ما تقف سداً منيعاً يحميهم من الانجراف في تيارات الثقافة الغربية الهادرة.

ورغم ثقة الأب في أبنائه، إلا أن ملاحظته المستمرة لتصرفات دخيلة عليهم، وخاصة ما يلي العلاقات مع الجنس الآخر، أثار هواجسه وقلقه.

فالبروفيسور نفسه حيي لا ينظر حتى في وجه طالباته، لذا يخشى على الدوام من انحراف أبنائه ووقوعهم فيما لم يقع فيه طوال سنوات مراهقته وما تلاها من عزوبية. فهو يخشى أن يقع الأبناء في شباك الرومانسية المبكرة، التي تعد ممارسة لحقوق الطفل في بريطانيا وأوروبا عموماً في ظل حماية القانون. وهذا في نظر بروفيسور أبوبكر لا يتماشى مع قيمهم الثقافية والأخلاقية والدينية.

لم يأل الأب والأم القلقان جهداً لمنع أي تحول في سلوك أبنائهم، لذا تجدهما يتحدثان إليهما كل يوم عن احترام قيمهم الثقافية والأخلاقية والدينية، حتى سبب ذلك ضجراً أحياناً للأبناء خاصة إبراهيم وأحمد، اللذين بلغا سن الرشد، وتتنازعهما رغبة الاستقلالية التي يتيحها القانون عند بلوغ سن الثامنة عشرة. لِمَ لا وهم يلقنون ضمن منهجهم الدراسي أن المراهقة هي مرحلة الاستكشاف والتجريب، وهي فترة تأسيس الهوية، لذا يلجأون إلى مراقبة وتقليد من حولهم.

غداً في بيتي

وبينما يحاول الأب والأم أن يلعبا دوراً حاسماً في مساعدة أطفالهم على اجتياز هذه المرحلة من خلال تعزيز التواصل المفتوح والصراحة والبوح بكل تفاصيل حياتهم اليومية لتوجيههم نحو اتخاذ قرارات مستنيرة ومسؤولة، تقابل محاولاتهم أحياناً بالتمرد والامتناع من الأبناء، على خلفية الاستقلالية الوهمية المحمية بالقانون.

بدأ القلق يدب في أوساط العائلة المحافظة بعد أن اكتشفوا أن أبناءهم قد بدأوا بالفعل تقليد زملائهم البريطانيين، كلبس الأُسورة وتصفيف الشعر وفق "التريند" ومجارات خطوط الموضة.

الأم، بقرون استشعارها، تشعر أحياناً أن أبناءها لديهم علاقات رومانسية، رغم عدم إجادتها للكنتهم الإنجليزية الصرفة، خاصة عندما يكون الحديث همساً، وفي منتصف الليل.

وما زاد الطين بلة اكتشافها أن إبراهيم وأحمد، الأبناء الأكبر يدخان. كما أصبحا يعودان إلى المنزل في وقت متأخر مما شكل مصدر قلق لها.

كانت الأم تتردد كثيراً في الحديث إلى والدهم. فهو رغم حلمه وهدوئه، غليظ إلى حد بعيد عند الغضب. فهي تخشى أن يضرهما وهما في سن يعاقب القانون البريطاني حتى الوالدين على ضرهما، ولو كانا على حق.

أما الأبناء أنفسهم فقد بدأوا يميلون إلى الاستقلالية، مما ساهم في تزايد شعور الوالدين بالقلق، على خلفية خطورة سن المراهقة والشباب التي يمرون بها في مجتمع يشهد فيه عنفوان التيارات الثقافية المتجاذبة المتضاربة.

ضغوط مجتمعية

المجتمع اللندني مجتمع متجدد. به تيارات متنافرة، من تيارات الموضة، والتريندات، والموسيقى، والفن، والرياضة، والثقافة، والدين. مجتمع يؤثر ويتأثر.

تولد هذه التيارات المتنافرة ضغوطاً اجتماعية تصحبها تأثيرات خارجية، وهذا ما يزيد من قلق الوالدين وخاصة بروفيسور أبوبكر الذي يراقب عن كثب كل يوم التغيرات المتسارعة داخل حرم الجامعة.

حتى هو لم ينج من رصاصات طائشة من جيل طائش اشتهر بمحاولاته تجريب كل شيء، في أي مكان وكيفما اتفق. لا يهم السن ولا الشكل. لذا تسمع عن ما يسمى بأزمة منتصف العمر midlife crisis وهي ترمز الى ارتباط من هم في سن 40-60 بفتيات يصغرنهم سناً. وتنطبق القاعدة على النساء أيضاً.

يراقب بروفيسور أبوبكر التغيرات الفسيولوجية والسيكولوجية لتلاميذه كل يوم. ويزداد قلقه كلما رأى مشهداً غير لائق او سلوكيات منحرفة خطيرة، تعتبر أمراً طبيعياً في أوساط الأوروبيين.

عنصرية وتنمر

حالهم حال غيرهم، يتعرض أبناء البروفيسور أبو بكر الأربعة لمضايقات بسبب عرقهم ولون بشرتهم.

تجربة العنصرية والتنمر التي يواجهونها باستمرار تؤثر بشكل كبير على سيكولوجية الأبناء وتعزز من احساسهم المتزايد بعدم التقدير والاحترام في مجتمع ولدوا وترعرعوا فيه، خاصة عندما يتكرر المشهد كل يوم. فهم بصورة شبه يومية يسمعون عبارات عنصرية بغيضة، لا تعكس جهل الآخرين وتحيزهم فحسب، بل تنم عن قصور مجتمعي للثقيف والتوعية لمكافحة هذا التمييز.

لم تجد نفعاً القوانين الرادعة ولا الحملات التي تنظمها بعض الجماعات وخاصة الجاليات الشرقية لمحاربة ظاهرة التنمر.

عاصم، بحكم صغر سنه، وريم لنحافة جسمها، هما الأكثر عرضة للتنمر في الأسرة.

كانت بداية الأسبوع في نهاية شهر يناير. يومٌ باردٌ تساقطت فيه الثلوج كعادة لندن في مطلع كل عام.

رن هاتف مكتب بروفيسور أبوبكر وكان المتصل قسم الشرطة في حي كينسينغتون الراق حيث مدرسة الأبن الأصغر عاصم.

طلب الضابط من الأب الحضور لأمر عاجل يخص ابنه عاصم. لشدة قلقه لم يبلغ بروفيسور أبوبكر أحداً، فهرع نحو سيارته وقادها بسرعة جنونية خلافاً لعادته. فهو عادة ما يحصل على مخالفات مرورية لبطء سرعته في الطريق.

لشدة ارتبائه، ركن بروفيسور أبوبكر سيارته عند الموقف المخصص لضباط القسم، مما كلفه مخالفة مالية بقيمة 200 جنيه إسترليني ونقطتين سوداوين.

دلف إلى مكتب الاستقبال الذي وجهه لمكتب الضباط المعني. كان أول ما وقع نظره عليه منظر ابنه وقميصه الملطخ بالدم. علم أن الخطب جلل، لكن الضابط سارع بطمأنته وأخطره بأنها حادثة بسيطة حيث تنمر أحد التلاميذ على عاصم، وهو يكبر ابنه بعامين، مما دفع الإبن لمحاولة الدفاع عن نفسه، لكن عدداً من أصحاب الخصم تجمهروا عليه وأوسعوه ضرباً.

قال الضابط للأب الذي كان ينظر برأفة وغضب لإبنه: كل المتهمين قُصّرَ لكنهم محتجزون في قسم الشرطة قيد التحقيق حتى يصل أولياء أمورهم للتوقيع على تعهد بعدم تكرار ما حدث.

غداً في بيتي

عاد بروفيسور أبوبكر مصطحباً عاصم إلى البيت بعد تلقي الإسعافات. وما أن رأت الأم بقع الدم على قميص ولدها حتى دخلت في حالة هستيرية من الصراخ والنواح. وقبل معرفة ما جرى، أعادت أسطوانة العودة الى السودان.



المصدر: موقع الميادين نت

تكررت الحادثة مرات عدة مع عاصم وأخته ريم.

ريم كانت ضحية لحادثة تنمر من أخطر بلطجية المدرسة (جيسيكا) التي تدرس في صف مجاور لصفها، حاولت خلع حجابها وسط تصفيق صديقاتها.

لم تكتف جيسيكا التي تتفاخر بشعرها الأشقر وبشرتها البيضاء بمحاولة نزع حجاب ريم، بل كالت لها السباب. الفاظ بذيئة وركل وضحكات وتصفيق من صبية متشبعون بعنصرية بغیضة تجاه الأجانب، حيث تنامت هذه السلوكيات ضد المحجبات خاصة في الفترة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

غداً في بيتي

هذا الحادث كان يتكرر كثيراً في المدارس البريطانية آنذاك، قبل غزو الحجاب لمعظم المدارس والجامعات.

مئات البلاغات كل يوم بسبب عبارات عنصرية أو مضايقات في المدارس والجامعات والطرق والأسواق.

دفعت هذه الحادثة ريم لأن تنطوي على نفسها وتقسم لوالديها أنها لن تذهب إلى المدرسة مجدداً أبداً، مما اضطر بروفيسور أبوبكر إلى أن يفكر في نقل ابنته إلى مدرسة أخرى، ولكن لانتشار هذه الظواهر في كل المؤسسات التعليمية وفي كل مكان، وبعد مشاورات مع أصدقائه وأقاربه، قبل على مضض استمرارها في المدرسة نفسها، مع بقاء القلق والتوتر كل يوم.

هذه الأحداث المتتالية أحدثت تغيراً سيكولوجياً عند ريم وعاصم، فبدأ يشعران بالعزلة وتدني احترام الذات والشعور بعدم الانتماء.

تزايد قلق الوالدين بشأن التأثير السلبي الذي يمكن أن تحدثه هذه السلوكيات الخطرة على نفسيات أبنائهما بشكل عام وهويتهم الثقافية بشكل خاص.

ما كان يزيد من قلق الوالدين هو عدم توفر الحماية لأطفالهم من الأذى، وعدم توفر ما يضمن سلامتهم الجسدية والنفسية. فبدأ يشعران بالعجز والإحباط لأن أبنائهم يتعرضون لمثل هذه المعاملة غير العادلة فقط بسبب لون بشرتهم.

أما إبراهيم وأحمد فهما في حلٍ من مثل هذه السلوكيات ويعود الفضل في ذلك لكثرة أصدقائهما ولإلمامهما بالفنون القتالية مثل التاوكوندو والكيك بوكسينغ، اللذين تلقيا تدريبات عليهما منذ الصغر. فهما يُحَمِّلان أبويهما همماً من نوع آخر ألا وهي مغامراتهما العاطفية التي أثرت سلباً على أدائهما الأكاديمي، وتلك كارثة أخرى ظلت تؤرق مضجع بروفيسور أبوبكر الذي سيصيبه صَغَارٌ في مجتمعه المحيط إذا ما فشل أبنائهما في تعليمهم وهو المربي الذي يشار إليه بالبنان.

بالفعل وقع ما لا يحمد عقباه. فكلٌّ من إبراهيم وأحمد وريم وعاصم بدأ مستواه في التدني ولكلٍ أسبابه. الكبار التهوا عن دراستهم بمغامراتهم التي تأكل جل وقتهم، والصغار بتشتت انتباههم بسبب التنمر والاضطهاد.

شعر البروفيسور أبو بكر بقلق عميق بشأن تأثير هذه المضايقات على نمو أبنائهم وإدراكهم لذاتهم، دعك عن تدني أدائهم الأكاديمي. لذلك كان يخشى أن يؤدي تعرض ابنائه لمواقف عنصرية أكثر خطورة إلى ترسبات تؤثر سلباً على هويتهم الثقافية.

في المحصلة أدت هذه التحديات مجتمعة إلى تفكير بروفيسور أبوبكر ملياً في حل جذري لهذه المعضلة قبل فوات الأوان.

غداً في بيتي

بعد مشاورات هنا وهناك، جاءت فكرة اتخاذ القرار الصعب بالعودة إلى السودان.

كان هم بروفيسور أبوبكر أن يوفر لأبنائه حياة طبيعية في مجتمع مسلم أشتهر بتقدير واحترام الإنسان وتنشئة الأجيال على القيم والثقافة الإسلامية، بعكس المجتمعات الغربية التي تعتبر التجارب السلبية ديدنها.

العودة إلى السودان وتحديد الريف السوداني الغني بالقيم والعادات والتقاليد المترسخة التي نشأ عليها هو والحاجة سارة يرى أنها كفيلة بإعادة اتصال أبنائه بجذورهم، وستمنحهم تجربة إحساس أقوى بالهوية، وتوفير لهم الحماية من التحديات التي واجهوها في مجتمع غربي متفكك.

في الوقت ذاته، يساور بروفيسور أبوبكر، وهو على أعتاب السبعين قلقاً من أن القرار قد تصاحبه تحديات ومصاعب لا قبل لهم بها مع تقدم السن، خاصة أن السودان عموماً والريف خاصة تعوزه الرعاية الصحية والتعليم، بينما توفر بريطانيا كل ذلك وأكثر بلا مقابل، فيما عدا الثمن الباهظ المتمثل في مسخ الهوية.

في خضم تلك الأفكار التي تتنازع بين الحين والآخر، جلس الحاج أبوبكر ذات ليلة مهموماً محملاً بشاشة التلفاز لكنه شارد الذهن. كانت فكرة العودة إلى السودان مازالت تختمر في مخيلته. لم يناقشها بصوت عالٍ مع الحاجة سارة التي يعلم علم اليقين أنها ستطير فرحاً لسماع مثل هكذا قرار.

اقتربت الحاجة سارة من الحاج أبوبكر الذي لم يشعر بوجودها إلا عندما باغتته بسؤالها عما يشغله.

... "والله يا حاجة ما عارف.. الأمور جايطة"، هكذا رد الشيخ المهموم بلهجة سودانية وعبارات تنم عن حزن وقلق عميقين.

سألته مجدداً: "خير إن شاء الله. الحاصل شنو؟" فأجابها وقد أخذ نفساً عميقاً أعقبته آهة طويلة تشبه التأفف: "إنتي عارفة يا حاجة موضوع الأولاد. الأولاد ديل حيزيعوا مننا. والله مافي حل إلا نفوت البلد دي".

تمتت الحاجة سارة بكلمات غير مفهومة ممزوجة بابتسامة متبوعة بزغرودة خجولة. "والله حيكون أسعد يوم في حياتي"... هكذا كان ردها، كما توقع.

لم يستغرق الأمر طويلاً في التفكير في القرار النهائي لكن العقبة الكؤود هي الأبناء. فهما يعلمان أنهم لا يقبلون حتى التفكير في الانتقال إلى مدينة غير لندن التي ولدوا وترعرعوا فيها وأحبوها، دعك عن الانتقال إلى السودان الذي لم يروه ولن يقبلوه بديلاً لبريطانيا.

العودة إلى الجذور

مع ازدياد الوضع سوءاً، قرر البروفيسور أبو بكر قراراً دون رجعة بالعودة إلى السودان، حيث يمكن أن يعيش أبنائه حياة طبيعية في مجتمع مسلم يحافظ على القيم والثقافة الإسلامية ويحترمها.

غداً في بيتي

جاء قرار العودة الى مسقط رأسه بعد أن بلغ سن السبعين، متقاعدًا بعد حياة مهنية طويلة ورائعة في أوروبا، امتدت لعقود، بعيدًا عن أرض الوطن.

قرر بروفيسور أبوبكر العودة لمعاودة الاتصال بجذوره، بقلب مليء بالحنين وعقل مليء بالذكريات، شرع في رحلة العودة إلى وطنه، حريصًا على لم شمله مع عائلته واجترار ذكريات قديمة متجددة، في المكان الذي كان متعلقًا به في يومٍ من الأيام.

لم يشمل اتخاذ القرار الأبناء الذين كان يدرك بروفيسور أبوبكر أنهم لم ولن يقبلوه مهما بلغت الأحوال من سوء.

لم يكن قراراً ديمقراطياً. ولم يكن أربعتهم يدركون أنهم مقبلون على نقلة نوعية في حياتهم. رحلة معاكسة لرحلة أبيهم الذي انتقل أيام صباه من الريف السوداني إلى عاصمة الضباب، بينما سينتقلون من لندن إلى أقصى شمال السودان. لا أصدقاء، لا لغة، ولا معرفة بتفاصيل الحياة هناك. كل شيء مختلف، الطقس، الوجوه، العادات، التقاليد، نمط الحياة.. لكن العزاء أن القلوب أنقى والنفوس أتقى هناك.

حزم الحاج أبوبكر والحاجة سارة الحقائق. أخطرا الأبناء بأنهم سيسافرون إلى السودان في إجاز قصيرة، حتى لا ينطلق مسلسل الرفض والاكنتاب، لينتهي بالإكراه، الذي إن حدث ربما ينتهي بتفكك الأسرة بعد أن يصار فيه إلى مطالعة نصوص القانون التي تبيح المحظورات لمن تجاوز عتبة الثامنة عشرة، دعك عن حرية الاختيار.

بعد نقاشات جانبية واعتراض هنا وهناك على فكرة العطلة المزعومة، حسم الحاج أبوبكر الأمر بتعليمات صارمة بالامتثال ولا شيء غير الامتثال. فإن لم يكن قراره كذلك، فإنه يعلم علم اليقين أنه سيخسر القضية إذا ما تمرد الأبناء، فالقانون يحميهم ويمنحهم حق الاختيار، خاصة من بلغ منهم سن الرشد.

امتلأ الأبناء وحن وقت الرحيل.

سمح الأب في بادرة أبوية بمثابة إعتذار وحسرة على النقلة التي سيقبلون عليها بدعوة الأبناء أصدقاءهم لحفل وداع. بادرة لا تشبه الشيخ الورع بلا شك.

عمل الجميع في عجل على إكمال الترتيبات.

الأبناء في حالة اندهاش شديد لما جرى. هل تغير البروفيسور الصارم أم أن خطباً ما سيحدث؟! غرت إبراهيم وأحمد أنفسهم لدرجة أنهم دعوا صديقاتهما إلى الحفل.

الأب والأم يرمقانها بين الحين والآخر، وهما يتهامسان مع صديقاتهما، ولسان حالهما يقول "غدا ستعلمون.. وإن غدا لناظره قريب".

وداعاً مدينة الضباب..

كان مطلع أغسطس، حيث المطر والضباب في لندن يوم السفر. ودع الأبناء لندن على أمل اللقاء ولا تدري أنفسهم "ماذا يحدث غدا".

بدأت الأخبار المفزعة من داخل الطائرة عندما أذاع الكابتن أن الرحلة ربما تستغرق وقتاً أطول نظراً للأتربة والعواصف في مطار الخرطوم.

ليس ذلك فحسب، فقد أردف: "درجة الحرارة في الخرطوم 43 درجة مئوية". صرخ إبراهيم، الذي لم يكن يعلم أن درجة الحرارة يمكن أن تتجاوز 20 في أي بقعة في الأرض: What??!، (ماذا؟).. هكذا صاح إبراهيم بلكنته اللندنية، دون الاكتراث لمن يجلسون من حوله.

بعد رحلة معاناة طويلة حسمها الأبناء شهوراً، هبطت الطائرة في مطار الخرطوم في أجواء غير مبشرة، في ذهول "الخواجات" السودانيين.

ودون انتظار وضياح للوقت مع لهفة الأبوين المتشوقين للقاء الأهل، استقلت الأسرة سيارة أجرة ذات دفع رباعي لقطع صحاري طريق الشمال، لتبدأ رحلة تراقص وتمايل في الكثبان الرملية لتصل السيارة إلى القرية عند مغيب الشمس، حيث ينام الجميع باكراً، إلا من كان يتربح حضور أسرة أبوبكر.

استقبلت الأسرة بالزغاريد النوبية وعبارات الترحيب التي كان يرددتها الصغار والكبار وهم يرمقون "الخواجات" باستغراب: "فضّلوس (وتعني مرحباً أو تفضلوا بالنوبية).

بعد عبارات الترحيب ومظاهر الفرح، سمح لزوار الليل بالانتقال إلى منزلهم المخصص وهو عبارة عن "غرفتين معكوستين" كما يطلق عليهما في قرى السودان، وتكونان عادة مبنيتين متجاورتين مع اعتبارات الخصوصية.

راح الجميع، من شدة التعب والارهاق في نوم عميق بعد تناول وجبة عشاء دسمة أعدت "بحب" للضيوف، ليستفيقوا صباحاً على أهزيج احتفالية وافطار دعي له كل أهل القرية على شرف الضيوف. وهكذا توالى مظاهر الفرح والترحيب بالأسرة العائدة.

لكن رغم الاحتفاء بهم أسبوعاً كاملاً، لم يستوعب إبراهيم وأحمد وريم وعاصم الصدمة.

الجو، المكان، الناس، اللغة وكل شيء حولهم مختلف، رغم جمال وروعة الريف السوداني.

الهجرة إلى الشمال

عاش الحاج أبوبكر واسرته بين أحضان عائلتهم الممتدة بضعة أشهر تخللتها قصص وتجارب كانت قاسية وغريبة على الأبناء. يتجازبهم الحنين إلى لندن لكنهم يستمتعون على استحياء جمال الريف السوداني ونيله ونخيله وكرم أهله وبساطتهم.

تمر الأيام ويزداد التملل والضجر وتزايد علامات الاستفهام عن موعد العودة إلى مسقط رأسهم، فهم يعتبرون بريطانيا بلدهم الأول والسودان في نظرهم هو بلدهم الثاني، حالهم حال كل من ولد ونشأ وترعرع خارج تراب الوطن. لم يبع الحاج أبوبكر والحاج سارة بنيتهما الاستقرار في السودان، فهما يخشيان تمرد الأبناء وربما هروبهم أو على الأقل انعزالهم ودخولهم في حالة اكتئاب. لكن بمرور الوقت تكشفت للأبناء الحقيقة بتسريبات من هنا وهناك أن لا عودة مرة أخرى إلى لندن.

لم تجد محاولاتهم المستميتة لاقناع والديهم بالعودة بعد اكتشاف الخديعة. فالأب والأم كانا يفضلان تنشئتهم في بيئة عربية ليحيدوا لغتهم الأم التي يتحدثونها بصعوبة وليحافظوا على قيمهم وتقاليدهم وثقافتهم الإسلامية. تراحت الأفكار في عقل الحاج أبوبكر الذي ما هان عليه ترك وطنه مجدداً، ولكن كان يحسبها بعناية حتى لا يضيع مستقبل أبنائه الذين لم يستطيعوا التعايش مع البيئة، دعك عن مواصلة تعليمهم والعيش مدى الحياة هناك.

تمت الترتيبات للسفر إلى الإسكندرية التي وقع اختيار الأبناء عليها بعد رضوخهم لفكرة الانتقال إلى مصر. فهم يحبون البحر والشاطئ والسباحة. قبلوا على مضض ولكن عندما أمضوا الأسبوع الأول هناك راقوا لهم.

الفصل الثاني

إدمان خلف الأبواب المغلقة

غداً في بيتي

طاب المقام لأسرة الحاج أبوبكر في الإسكندرية وتكيفوا مع جوها المعتدل خاصة مع اقتراب فصل الخريف. الإسكندرية مدينة جميلة بامتياز. تلقب بعروس البحر الأبيض المتوسط وتعتبر العاصمة الثانية لمصر وقد كانت عاصمتها قديماً .

تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط وتضم بين طياتها الكثير من المعالم المميزة، إذ يوجد بها العديد من المتاحف والمواقع الأثرية مثل قلعة قايتباي وعمود السواري والشواطئ الجميلة وغيرها. وتشبه شواطئ الإسكندرية إلى حد ما شواطئ مدينة برايتون الساحلية في جنوب شرق بريطانيا لذا يرتادها السياح الغربيون. وهذا الجمال هو ما خفف من صدمة الانتقال من عاصمة الضباب إلى جو القارة الافريقية الحار. وبدأ رباعي "الخواجات" في التأقلم مع الوضع الجديد.



شواطئ الإسكندرية - المصدر: المصري اليوم

غداً في بيتي

لم يمض وقت طويل في الإسكندرية حتى فوجئ العالم في خريف عام 2019 بخبر مفرع، حيث أعلن عن ظهور أول حالة إصابة بفيروس كورونا في مدينة ووهان الصينية، ليجتاح الوباء العالم خلال شهر واحد، مما أجبر الناس على عزل أنفسهم والبحث عن بدائل داخل حدود منازلهم.

وجد أبناء بروفييسور أبوبكر الأربعة أنفسهم منقادين، كحال أقرانهم من الشباب، إلى جاذبية منصات وسائل التواصل الاجتماعي، باحثين عن التواصل والترفيه من خلال شاشاتهم الصغيرة، بعد أن أخطرتهم المدارس والجامعات أن التعليم سيكون عن بعد.

وما لبث أن انزوى كل واحد منهم إلى غرفته المنفصلة، ليغوص في عالمه الرقمي الخاص المغمم بالكثير من المغريات بلا رقيب ولا حسيب، ليفقد في المحصلة الاتصال بالواقع وبالاسرة.



المصدر: موقع ويكي هاو

أصبح الأبناء كموديلات مختلفة من الروبوت.. أجساد هامة، وعقول خاملة، أقصى مدى لها للتنقل داخل المنزل لا يتعدى المئة متر في اليوم.

لا يغادر الواحد عشه إلا عندما يحس بالجوع. فيخرج مندفعاً نحو صالة الطعام، أو في غالب الأحيان يكتفي بطلب التوصيل "دليفري"، الذي أصبح الطارق الوحيد للأبواب أثناء الجائحة. فلا زائر، ولا جار، ولا حتى مندوب شركات الماء والكهرباء الذي أصبح هو الآخر يؤدي عمله من على البعد.

غداً في بيتي

يقضي الأبناء الثلاثة ساعات طويلة، لا يكلمون ولا يملون أمام شاشات السوني والآيباد وتارة الهواتف النقالة عندما يصيبهم التعب ويحنون لفرشهم.

فلا نوم إلا في ساعات النهار التي يكون فيها الأبوان مستيقظين، وهكذا هو الحال.. فرصة ملائمة لتفادي الاستجواب أو التوبيخ أو حتى المواعظ التي باتت مكرورة في نظر الأبناء المغيبين التائبين في العالم الافتراضي. فكم من مرة سمعت آذانهم من الأب دائم المواعظ لقوله تعالى: " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) " سورة النبأ.

أصبح ثلاثتهم محاطين بأصدقاء افتراضيين تجاوز عددهم المئات.

ليسوا أصدقاء ممن يسكنون الحي، أو الحارة، أو حتى المدينة، بل صداقات عابرة للمحيطات. أصدقاء بينهم مخلصون صادقون، وهم قلة، همهم قضاء أوقات يحسبونها رائعة.

لم تخل شلة الأصدقاء من المنحرفين، ودعاة العنف والمتمردين على الأعراف والتقاليد.

نقطة تحول

بعد منتصف ليلة ممطرة باردة أشعل عاصم الإبن الأصغر المدفأة ولف جسمه الهزيل ببطانية صوفية رافقته في رحلة الانتقال من لندن، عبر الريف الشمالي في السودان، ثم إلى مستقره الأخير في مدينة الإسكندرية، التي لا تقل برودة جوها عن برودة مدينة الضباب في الخريف والشتاء. لم يثن ذلك البرد القارس عاصم عن متابعة اللعب العابر للمحيطات.

ظهرت تلك الأيام لعبة "وورلد أوف تانكس World of Tanks"، المصنفة الأخطر على الإطلاق، والتي أصدرت في العام 2020، وأدرجت ضمن أخطر الألعاب الإلكترونية، وقد كانت من بين الألعاب الشهيرة المنتشرة بصورة كبيرة.

كان عاصم شغوفاً بالعالم الافتراضي ويعشق الجديد المتجدد. يحب التعرف على أصدقاء جدد كل يوم.



المصدر: وور غيمينغ دوت نت

تدور فكرة "وورلد أوف تانكس" حول المعارك البحرية والجوية، ويحاول اللاعبون فيها الحصول على بعض المواقع التكتيكية في ساحة المعركة، مع ضرورة الاستمرار بإطلاق النار من الدبابات والمدفعات بصورة شبه واقعية، وذلك من أجل حماية أنفسهم والحلفاء المتعاونين معهم، وهذا ما يروق لعاصم الذي كان يمضي جل وقته في ساحة القتال الافتراضي، تارة مع صديقه محمود الذي يكبره بعامين ويقيم مع أسرته في كندا، مما يضطره أحياناً للسهرة حتى يتمكنوا من اللعب سوياً، وتارة مع أشخاص غرباء مجهولي الهوية.

يكون الخصوم أحياناً أصدقاء افتراضيين يزورون أعمارهم، من بينهم ذئاب مفترسة تختبئ خلف أقنعة أطفال أبرياء يصطادون في تلك الأحرش الوهمية عبر الشاشات الصغيرة.

وبينما كان عاصم متفاعلاً مع خصم إسمه "إبن أوى" في معركة غير متكافئة، لاحظ الأخ الأكبر إبراهيم وهو يمر بجوار غرفة عاصم أن بابها موارباً كغير العادة. فهي مغلقة باحكام طوال الوقت لمزيد من الخصوصية. وتنبه إبراهيم إلى أن شيئاً ما غير طبيعي، حيث لاحظ أن أخيه الأصغر يتحدث إلى خصم كان واضحاً أنه يكبره سناً بكثير، ويجيب على أسئلة شخصية وحساسة.

كانت تدور الأسئلة عن الأسرة، الأب، الأخوان، ماذا يعمل الأب؟ وهوايات عاصم! وإن كان يحب أن ينضم إلى فريق سينافس في مسابقة "وورلد أوف تانكس"، ستقام مطلع العام القادم في مدينة استوكهولم، العاصمة السويدية.

تمكن إبن أوى من اقناع عاصم بالتفكير في الأمر بجدية للانضمام لفريقه ووعده بتدريبه ليصبح بطلاً عالمياً يشار إليه بالبنان.

غداً في بيتي

لم ينس ابن أوى أن يذكر عاصم مراراً وتكراراً بأن لا يخبر أحداً عن المنافسة.

ساورت إبراهيم الشكوك فظل يراقب عاصم من وقت لآخر، لكن الأخير يستغل انشغال أخيه الأكبر في عالمه الافتراضي هو الآخر ليتلقى مزيداً من الاعراضات من ابن أوى.

في بداية صيف العام التالي، حيث كانت حالات الإصابة بفيروس كورونا قد بلغت ذروتها والكل يختبئ خلف قناع الوجه، تشابهت الأقنعة وأصبحت البيئة خصبة للاختباء خلف قناع البراءة.

كانت مجموعة من المتطرفين يقودها ابن أوى تعد العدة لمهاجمة وتفجير ملعب لكرة القدم أثناء مباراة يحضرها عمدة مدينة استوكهولم.

أختير عاصم بعناية نظراً لوجهه البرئ وجسمه النحيل وجواز سفره الأفضل في العالم للتسلل ضمن مجموعة الاستكشاف.

قبيل الموعد المحدد بشهر وصلت عاصم رسالة للاستعداد للسفر، وكونه يحمل جواز سفر بريطانياً فلا يتطلب السفر الحصول على تأشيرة دخول أو تصريح سفر إلى السويد.

هكذا تتصيد الجماعات المتطرفة الصغار من هذه الفئة لتسهيل عملياتها، لضمان عدم اكتشاف مخططاتها.

تنفيذاً لتعليمات ابن أوى ظل عاصم حبيس غرفته لمدة أسبوعين، قبل أن تصله رسالة عبر جواله لاستلام مبلغ ألفي دولار هي قيمة تذكرة السفر إلى السويد، إضافة إلى نثرات السفر.

والحال كذلك، يجلس البروفيسور أبوبكر والحاجة السارة، كما يحلوه ولأبنائه، يتسامران مع خلو الجو لهما من ضجيج الأبناء وصحبتهم الغير مرغوب فيها أحياناً، والتي يطلق عليها البعض "هادمة اللذات" في مثل هذه الأوضاع.

... "تذكري يا حاجة لما أول مرة سمعت خبر إنك حتتزوجي ود عمك؟ بالله كان شعورك كيف؟"، تساءل الحاج أبوبكر، وفي نفسه شيء من "حتى".

... "كيف أنسى بالله عليك. كان يوم حزين"، ردت حاجة سارة وهي تحاول استفزاز من لا يساوره شك في أنها تعلق قلبها به منذ أن سمعت الخبر وازداد شغفها به يوماً بعد يوم.

لم يشأ الحاج أبوبكر مقاطعة شريكة حياته، بل ظل "يبرم" شنباته متأسيا بالصعيدي هريدي بطل مسلسل "هريدي وليلى" الذي يحرصان على متابعة حلقاته المثيرة، وهما يحتسيان الشاي "المقنن" السوداني وهو الذ وأطعم أنواع الشاي بالحليب. يحب كلاهما هذا النوع من الشاي الذي يوجد حصرياً في السودان، وهو علامة سودانية مسجلة. طريقة عمله فريدة من نوعها حيث يوضع الحليب أياً كان، حليب البقر، أو حليب النعاج،

غداً في بيتي

أو حليب الماعز أو حتى حليب البودرة ثم يغلى في "حلة القنان" التي تتعتق بغليان الحليب فيها مرة بعد مرة ولكن يمكننا ان نعتقها ونستخدمها لتقنين الحليب فقط لتصبح نكهة الشاي لا تقاوم).



لوحة للرسام السوداني معتر الإمام (المصدر: اندبندنت عربية)

وبينما واصلت حاجة سارة حديثها، متوجسة من نظرات رفيق درجها التي لا تخطئها، تداركت الأمر بشئ من عبارات الغزل الصادق.

تمتتم سارة برائعة شاعر الحقيبة السوداني سيد عبدالعزيز "لو غربلو الدنيا" التي يقول في مطلعها:

لو غربلو الدنيا ونقو صافها

انسان جميل مثلك ما اتوجد فيها..

"يا سلام"، قاطعها الحاج أبوبكر "كملي... كملي!!"

وما كان منها إلا أن انتصبت أمامه وهي تتمايل وتغني في لحن طروب اغرورقت عيناه بفعله دمعاً سخينا:

غداً في بيتي

حاولت للذكرى للنفس ترفيها
أنظم غناك أشعار بالحب اقفها...
من المعاني اختار ساميها صافيها
ارجع وأجد حسنك في حقيقتو خافيها

روائع أوصافك دقت معانيها
كبرت عن التعبير لا حد يدانيها...
تحدث طموح العين تملأها تغنيها
قبلة قلوب الناس ومحل امانها



هكذا يمضي حاج أبوبكر وحاجة سارة وقتهما يقتلان رتابة العزلة المفروضة عليهما من أبناء يهيمنون في عوالم الخيال، كل يغني على ليلاه.

غداً في بيتي

في الجانب الآخر، خلف الجدران، تدور أحداث مسلسل العنف، بعكس الغرام المتأخر بين الشيبان في الثلث الأول من الليل.

وبينما تقترب ساعة الصفر يستعد عاصم للرحيل. تسلل خفية متوجساً يترقب عند العاشرة في صباح اليوم التالي بعد تلقي الرسالة التي أمر بحذفها على الفور والتوجه لاستلام المبلغ من الصرافة.

كل شيء مخطط له باحكام حتى لا يُترك خيطٌ واحدٌ قد يكشف المخطط، أو يستخدم حتى بعد تنفيذ العملية للوصول إلى مرتكبيها.

جهة التحويل أو اسم المرسل غير معلوم أو وهمي أحياناً، حيث أن هذه المجموعات تستخدم هويات مزورة لمثل هكذا معاملات.

دلف الصبي عاصم إلى الشارع بعد طول غياب. أغمض عينيه بسبب أشعة الشمس الساطعة التي بدت كأنها أشعة فوق الحمراء، خرقت بشرته الناعمة التي تعودت على برودة غرفته المظلمة.

فرك عاصم عينيه تماماً كما فعل كاوبويات هوليوود في فيلم "الهروب الكبير The Great Escape"، بعد تمكنهم من الهروب الجماعي من معسكر أسرى الحرب النازيين في خطة محكمة، حينما فرك كل منهم عينيه لشدة قوة أشعة الشمس الحارقة التي لم يروها في حبسهم الانفرادي.



لقطة من فيلم الهروب الكبير (المصدر: تشيكاغو ريدر)

غداً في بيتي

تمكن عاصم من الوصول إلى محطة الرمل في الإسكندرية التي تبعد بضعة أمتار عن منزل عائلته.

بدأ يسأل المارة وأصحاب المحال وكأنه أحد صبية "أهل الكهف" الذي أرسل إلى القرية ليحضر لهم الطعام، فلاحظ أن معالم القرية قد تغيرت واختلف الناس، كما أن النقود التي يملكها لم يعد أحد يستخدمها من مئات السنين.

كذلك كان حال عاصم، تشابهت عليه المحال والطرقات، وبدت كل الوجوه غريبة تنظر إليه كأنه هبط من كوكب آخر.

دله أحد أصحاب المحال على الصرافة فأسرع إليها يتلفت يمنة ويسارا خشية أن يراه أحد.

تسارعت ضربات قلبه عندما تذكر تحذيرات ابن أوى:

... "لا أحد كائناً من كان.. يعرف من أنت وإلى أين أنت ذاهب"، هكذا كانت قسوة عبارات زعيم الجماعة ذات النبرة التهديدية التي يُخاف عقباها.

اقترب عاصم من الصراف وتمتم موجهها سؤاله للصراف: "عندي حوالة وصلت؟" "من فين؟"، سأل الصراف عاصم بنبرة تخيلها تحقيقاً شرطياً.

... "والله مش عارف" رد عاصم بلكنة مصرية أظهرت أنه ليس مصرياً.

طلب الصراف من عاصم أن يبرز هويته لكونه صغيراً في السن.

تصعب عاصم عرقاً بعد أن خُيل له أن أمره سيكتشف.

عاصم: "ما فيش معاي غير جواز سفري".

الصراف: "طب حلو.. وريني كدة!!"

جذب الصراف جواز سفر عاصم ذي اللون الأزرق الداكن الذي يتربع التاج الملكي البريطاني على غلافه. نظر الصراف باعجاب للجواز.

ولما كان عاصم قاصراً دون الثامنة عشرة من عمره باعته الصراف متسائلاً بعد أن أمعن النظر في تاريخ ميلاده "هو عمرك كام يا إبنى".

لم ينتظر الصراف رداً من عاصم ليرد قائلًا "روح هاتلك حد كبير يستملك الفلوس".

هنا بهت عاصم ولعن ابن أوى واليوم الذي تعرف عليه فيه.

غداً في بيتي

استأذن عاصم في عجل وغادر المكان، تاركاً جواز سفره لدى الصراف الذي ركض وراءه "يا ابني خذ الجواز بتاعك"، فخطفه عاصم وتلفت يمناً ويساراً وهو يتمتم بكلمات انجليزية بلكنة الكوكني (لهجة أهل لندن خاصة الشباب) التي يجيدها قبل أن يقفز إلى الرصيف ليتجه إلى منزله مجرراً أذيال الخيبة والهزيمة في أول تجربة فعلية له على بعد آلاف الأميال من أرض المعركة. هنا أدرك عاصم أن عالم الواقع يختلف تماماً عن واقع الخيال.

الشبكة العنكبوتية



عاد عاصم أدراجه إلى البيت ولم يأبه لسؤال أخيه أحمد الذي التقاه لدى الباب أين كان، وماذا فعل خارج المنزل دون استئذان والديه، خلاف عاداتهم قبيل الجائحة!!

أسرع إلى غرفته وأغلقها ثم استلقى على فراشه وأحس أن قلبه سيقفز من صدره عبر فمه.

غداً في بيتي

حاول جاهداً أن يغمض عينيه ليستوعب أو حتى يتناسى ما حدث لكن محاولاته باءت بالفشل. ظل محملاً صوب سقف الغرفة كالمغشي عليه يتأمل ذبابة تحاول الفكاك من خيوط عنكبوت سقطت بداخلها بدقة ككرة سلة قذفها لاعب محترف من على البعد.. كانت الذبابة تحاول الفكاك بثقة تامة في بادئ الأمر.

خيل للذبابة أنها حرة طليقة، وأنها تستطيع التملص والفكاك بأبسط مجهود وكأنها تقول سرّاً: هل تعوق ذبابة قوية مثلي خيوط من حرير..

لكن كلما مضى الوقت يزداد قلقها.. ثم بدأ التوتر يتسلل إلى أوصالها، والدم يجف في عروق أرجلها الهزيلة. بدأ يزداد توترها شيئاً فشيئاً عندما أدركت أن كل حركة جديدة تقيدها أكثر.. مرت نصف ساعة وعاصم مازال محملاً، وهو الآخر يرتجف ويتصبب عرقاً.

أصيبت الذبابة بذعر شديد وتسارعت حركاتها ومحاولاتها المستميتة التي كلما زادت كلما التفت المزيد من الخيوط على جسدها النحيل. أيقنت الذبابة في نهاية المطاف أنها بدأت تختنق ببط وربما تموت..



المصدر: موقع الجزيرة نت

غداً في بيتي

غيرت الذبابة من تكتيكها بالرفس ومحاولة تحريك جناحها وإصدار نغمات "طنينية" بطريقة هستيرية طائفة أنها ستستطيع التملص من "الشبكة العنكبوتية"، لكن كان ذلك دون جدوى، بل أدى إلى ما لا يحمد عقباه.. فذاك الطنين أرسل ذبذبات لاسلكية إلى العنكبوت الذي كان في نزهة حول المكان بحثاً عن وجبة سميئة.

اقترب العنكبوت من بيته الذي هو "أوهن البيوت" كما جاء في محكم التنزيل، رغم أنه منسوج من أقوى الخيوط وأكثرها مرونة! وقد بدا للذبابة بالفعل كأنه أكثر البيوت متانة وتحصينا.

تحسس العنكبوت طرف النسيج يختبره بإحدى أقدامه الثماني، وكأنه ديناصور في نظر الذبابة.

أدرك العنكبوت أن ثمة ضعفاً قد حل بالدار. وما أن عَلِمَ اليقين أن هناك فريسة سهلة في بيته حتى باغتها بمناورات رشيقة مدروسة، إذ راح يدور حولها ليحكم الكفن الحريري بلف الخيط حول الذبابة المدعورة التي كانت تساعده بمحاولات التملص التي تزيد الأمر تعقيداً.

لم يعد عاصم يرى الذبابة لكن كان يرى الجزء البارز من الخيط يدور ويدور رويداً رويداً حول نفسه ...

هنا هدأ المكان وساد الصمت أرجاء الغرفة إلا من أنفاس عاصم المتسارعة. لم يدرك عاصم أن العنكبوت قد حقن فريسته بسمه القاتل ثم امتص من بين أوصالها عصارة الحياة.

ورغم عدم إدراكه لتفاصيل ما حدث إلا أن عاصم ربط بين حاله وحال الذبابة المسكينة، فأصيب بالهلع وتراءى له أنه كان سيقدم على المصير نفسه.

فقد تنوع الشبكات العنكبوتية، ولكن الموت واحد.

قرر عاصم أن يفشي بسرّه لأخته ريم، ولكنه خشي أن تخبر والده فيغضب خاصة أنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم واعتلال عضلة القلب.

كتم عاصم سرّه ولم يفش به لأحد متظاهراً بأنه طبيعي.

دفعه ذلك إلى التقرب أكثر من والديه اللذين تعجبا لأمره كونه أصبح قليل العزلة وأكثر انفتاحاً نحوهم.

لكن بين الفينة والأخرى ينزوي داخل غرفته يلعب بعض الوقت ويتواصل مع أصدقائه.

وبينما هو في الحال تلك، نسي أن يغلق باب غرفته ولم يغلق شاشة البلاي ستيشن التي يتأكد من اغلاقها كلما هم بالخروج، حتى لا يستطيع كائنا من كان أن يفك طلاسمها. لم لا وهذه إحدى أهم بنود تعليمات ابن أوى الذي أصيب بالجنون لغياب أحد أهم عناصر مخططه. فلا خير ولا أثر لبطله الشاب الذي انقطع لعدة أيام عن التواصل.

غداً في بيتي

في هذه الأثناء بعث ابن أوى بعدة رسائل تارة يستفسر عن الترتيبات وكيف تسير، وتارة يهدد بأن مصير من يتلاعب معه سيكون مشؤوماً.

فهو لا اخلاق له ولا مبادئ ولا أحاسيس، وسرعان ما يتحول صديق الصباح عنده عدواً في المساء.

لاحظ إبراهيم أن عاصم ترك باب غرفته موارباً فظن أنه بالداخل.

لم يكن معتاداً ولا غيره من إخوته أن يدلف إلى غرفة أخيه دون استئذان.

قرع الباب بتأدب كأنه هو الأصغر.

ولما لم يستجب بعد ثلاث (كما علمه والداه عملاً بالشرع) دخل الغرفة ليجد ما لم يتوقعه.. سيجارة الكترونية هنا... وهناك مشروبات طاقة بأنواعها ممنوعة بأمر الوالد أن تدخل إلى البيت. لم تكن تلك المناظر أكثر إدهاشاً مما تسمرت قدماها لرؤيته.



المصدر: اليوم السابع

غداً في بيتي

كانت شاشة البلاي ستيشن في حالة تشغيل. وكانت "دردشة" مجموعة ابن أوى مفتوحة. صعق إبراهيم لهول ما قرأ.

.... "إذا لم تتواصل معنا لمدة ثلاثة أيام من تاريخ اليوم سنرسل من يختطفك من منزلك" ..

.... "ستلقى نفس مصير صديقك نادر.. هل تذكره؟

(لإرهاب عاصم وضعت صورة نادر وهو على كرسي متحرك بعد أن حاولت المجموعة اغتياله بسبب خيانتة لهم لكنه نجا باعجوبة وأصيب بالشلل اثر إصابة رجليه برصاصة أحد أتباع ابن أوى).

لم ينتبه إبراهيم أن الرسالة كانت قبل أربعة أيام، إلا أن عاصم لم يقرأها هو الآخر. قرر انتظار عودة أخيه. ساعة ثم ساعتان ثم ثلاث.

لا أحد يعلم باختفاء عاصم إلا إبراهيم.

تردد كثيراً في أن يبلغ والده خوفاً على صحته العلية.

وعندما هم إبراهيم بمفاتيحة والده في الأمر رن جرس الباب فاذا بعاصم بالباب.

تنفس إبراهيم الصعداء، ولم يمض وقت طويل ليكتشف أن عاصم خرج في نزهة مع أصدقائه. لكن هل كان صادقاً؟! بالتأكيد لا، فقد اختطفته عناصر ابن أوى لتهديده وإلا فسيلقى مصيره المحتوم، كمصير صديقه نادر، وهو أخف الأقدار.

غزاة في بيتي



المصدر: العربية

الفصل الثالث: شرح نسيج الأسرة

غرباء في بيتي

مع تحول الأيام إلى أسابيع والأسابيع إلى أشهر ، بدأ تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الأسرة يتسلل إلى كل مفاصل الأسرة وتفصيل حياتها اليومية.

تضعفت روابط الأسرة بسبب الإلهاء المستمر والانفصال الناجم عن إدمان الإنترنت. أصبح التواصل المباشر بين أفراد الأسرة نادرًا ، وحلت محله التفاعلات السطحية عبر منصات الإنترنت.

حتى الحاجة سارة أصبح التواصل معها لطلب وجبة أو زجاجة عصير أو كوب من القهوة عبر ما أسموه قروب "البيت" على الواتساب.

تلاشت مظاهر الحياة في الأسرة التي كانت تنبض بالحيوية والترابط، وحل محلها جو كئيب من العزلة واللامبالاة.

الحاج أبوبكر، لشدة اكتئابه وقلقه من ما آل إليه حال أبنائه وانزوائهم قال متهمكاً ذات مرة في جلسة صفاء نادرة "المفروض القروب بتاع الواتساب دا نسميه "غرباء في بيتي". لم تلق طرفته هذه أذانا صاغية، وربما اعتبرها أحدهم "نكتة بايخة".

وبينما الثلاثي الهائم منغمس في الملذات، تتزايد مشاجرات الإخوة أحيانا لأتفه الأسباب. المشاحنات أبطالها في الغالب أحمد وعاصم، رغم أنهما ليسا طريدين كما يطلق على الإخوة المتتالين في التسلسل في السودان، فبينهما ريم، تلك الأخت الهادئة، الخجولة التي يعتبرها والداها فاكهة المنزل. فهي لا تتشاجر، ولا تضيع وقتها في اللعب، كما يفعل إخواتها الذكور.

بعد منتصف ليل عطلة نهاية الأسبوع التي عادة ما يكون ليلها كنهارها، تزيغ فيها بوصلة الأخوة المراهقين الثلاثة إلا ريم البلسم، استيقظ أبوبكر وسارة مذعورين ظنا أن لصوصا قد تسللوا عنوة بعد تمهيشيم زجاج باب البلكونة المطلة على البحر. إنها مشاجرة أخرى ولكن هذه المرة بين إبراهيم الابن الأكبر وطريده أحمد.

لم تكن المشاجرة بسبب ذراع تحكم سوني، وهو ما يحدث غالبا، ولكنها صحوة وقتية للإبن الأكبر الذي كان يحث أخيه الأصغر للتوقف عن اللعب.

حاول إبراهيم التحدث إلى أحمد بهدوء نزولا على رغبة الأب "فالصباح رياح"، كما يقول الأب القلق دوما.

لم تُجدِ محاولات إبراهيم نفعاً فبدأ يتعالى صوته شيئاً فشيئاً، وتتسارع أنفاسه، وهو يفور من الغضب، وأحمد هناك لا يأبه لما يدور حوله.

فلا وازع ولا شيء يهاب.

غداً في بيتي

الأسرة يمنع فيها العنف الجسدي، هكذا ترعرع الأبناء "الخواجات" بمزيج من تربية الأسرة الإسلامية القروية المتدينة المحافظة، وترسبات محاذير القانون البريطاني الذي يعاقب على العنف، حتى الأبوين.

ولا ينسى هنا بروفييسور أبوبكر التجارب المريرة التي عاشها هو وزملاؤه على مر السنين في بريطانيا، حيث كانوا يستشيطنون غضبا على سلوكيات أبنائهم الذين يغلب عليهم طابع العناد، مسنودين بقانون كان يراه الآباء جائراً ومناهضاً لتعاليم الدين الإسلامي الذي يأمر بضرهم لعشر، والحديث هنا عن ترك الصلاة، لا على السلوكيات إجمالاً.

لا ينسى بروفييسور أبوبكر مأساة صديق عمره بروفييسور مازن الذي حرم من رؤية ابنه مصطفى ذي العشرة أعوام وصديق ابنه أحمد، لضربه في مناسبتين متتاليتين تسبب في الثانية بتورم ذراعه.

كانت عطلة نهاية الأسبوع. توجه مصطفى إلى المدرسة لتنهال عليه الأسئلة الفضولية التي لا تخلو من استفزاز وعنصرية بغیضة أحياناً.

سارع جيش من التلاميذ نحو الإدارة ليبلغوا عن "المجزرة" التي تعرض لها زميلهم مصطفى لتتولى الإدارة "مجلس الأمن" الأمر دون تردد، لتبلغ شرطة اسكوتلاند يارد، التي يسيل لعابها لمثل هكذا بلاغات، فمهرع إلى موقع الحدث فريق من الأخصائيين النفسيين والأطباء العموميين والاسعاف وكل من يهمهم الأمر.

ولا ننسى فرقة "القوات الخاصة" التي تتولى القبض على "المجرم المعتدي".

كان بروفييسور أبوبكر ممن سعوا سعياً حثيثاً لإفهام من لا يعون الرسالة أن ذاك السلوك كان واجباً أبويّاً، ولكن خشية أن يكونوا سبباً في أن يلقي أبوهم مصير بروفييسور "عمو" مازن بتهمة العصيان وتهديد الأمن القومي وتقويض الإرث الثقافي التربوي والاجتماعي البريطاني، وهي تهمة قد تصل عقوبتها لعدة سنوات خلف القضبان، لذا تراجعوا شيئاً فشيئاً.

أصبحت بعدها قصة بروفييسور مازن مرجعاً وحكاية تحكي عبر الأجيال، بعد أن حزم البروفيسور حقائبه وغادر إلى مسقط رأسه بعيداً عن الحواجز والتعقيدات الحياتية في بلاد الغرب.

كانت تساور بروفييسور أبوبكر آنذاك هموم الاختلاف الثقافي الذي كان يؤرق مضجعه. كان يلاحظ تغيراً في سلوك أبنائه الذين كانوا على الفطرة السليمة.

ولكن حالهم حال أقرانهم بدأوا يتشربون بعض السلوكيات غير المقبولة. وكانت القاصمة عندما بدأ إدخال مواد مخالفة للتعاليم والقيم الإسلامية في الكتب والمناهج، ناهيك عن الممارسات المنبوذة في حرم المدرسة التي

غداً في بيتي

يرونها طبيعية ويوصم بالشاذ من يراها خلاف ذلك. هكذا هي تلك المجتمعات، تقلب الأشياء حيث تشاء وكيفما يحلو لها.

ذكريات مريرة تدور في ذهن الوالد الذي يحمد الله أنها أصبحت "شيئاً من الماضي".

لكن هل كان انتقال الأسرة إلى الإسكندرية هو الحل؟!

صندوق باندورا

لم يدر بخلد بروفيسور أبوبكر أن ما كان يخشاه وجعله يهاجر عائداً إلى موطنه ثم إلى الجارة مصر ليستقر فيها سيلاحقه، مطمئناً أن الجائحة، رغم كل سلبياتها، كانت إيجابية بعزل الأبناء عن المجتمع.

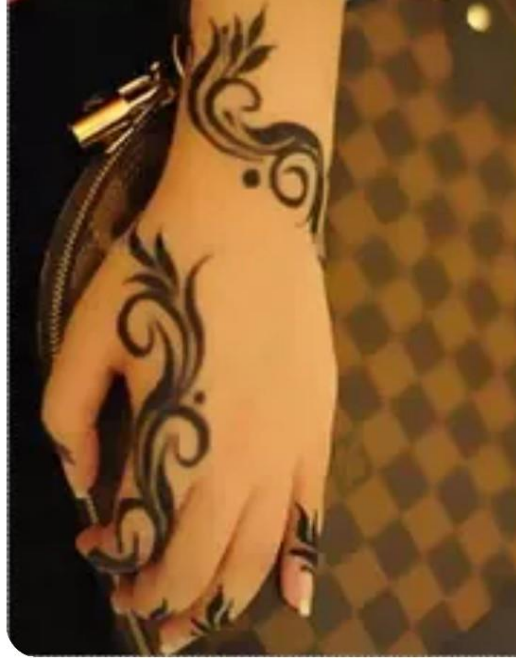
فكل المجتمعات تؤثر وتتأثر بغض النظر عن المكان. فالشبكة العنكبوتية أتت بكل الشرور متسللة إلى غرف الأبرياء، فأصبحت كما يحلو للبعض مثل "صندوق باندورا"، اسطورة الميثولوجيا الإغريقية.

أثر البرود الذي أصاب الروابط الأسرية بشدة على الحاج أبوبكر. تحول الإحباط إلى غضب عندما رأى أطفاله منغمسين في عوالمهم الافتراضية، وهو يستذكر اللحظات التي كانت عزيزة على الأسرة والتي كانوا يقضونها معاً.

أثرت العزلة والضغط على صحته العقلية، مما أدى إلى مشاكل نفسية بلغت ذروتها، وكانت الحاجة سارة هي الوحيدة التي تهتم بزوجها المريض، حيث ظل أبناؤهم غافلين عن معاناته، كل يهيم في عالمه الافتراضي.

حتى أنت يا ريم؟!

ريم التي ينظر إليها بأنها فاكهة الأسرة الأكثر عقلانية ورزانة لم تنج هي الأخرى من سموم الشبكة العنكبوتية. فهي شأنها شأن إخوتها وجدت ملاذاً في صداقات الانترنت لتعوض عن الفراغ الشاسع الذي نشأ بسبب الجائحة.



نشأت بين ريم والعديد من الفتيان صداقات قوية عبر أثير الانترنت. فهي لم تكن شغوفة كإخوانها الذكور بألعاب البلاي استيشن، ولكن كانت تجد ضالتها في الدردشات التي تمتد إلى منتصف الليل، بل الساعات الأولى من الفجر أحياناً.

ولا تخلو الدردشات من مقاطع التيك توك الخفيفة من غناء ورمانسية ومقالب وطبخات ووصفات حلويات وموضة.

كانت ريم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأقرب صديقاتها "شذا" ذات التسعة عشر ربيعاً، التي تسكن حي الزمالك الراقى مع والدتها المنفصلة عن والدها منذ سنوات.

كانت كثيراً ما تعبر شذا لريم عن شوقها للقيها وجها لوجه رغم بعد المسافة بين القاهرة والإسكندرية اللتين تفصل بينهما حوالي 216 كيلومتراً، وتستغرق الرحلة زهاء ثلاث ساعات ونصف بالقطار، وحوالي ساعتين ونصف بالسيارة.

لا تتوقف شذا عن الطلب من ريم أن تصور لها ثوبها وحذاءها الجديد. تصر على الدوام أن ترسل لها مقاطع فيديو ولكنها لم تطلب أن تكون المحادثات عن طريق كاميرا الفيديو لشيء في نفسها.

مع تلاشي شبح الجائحة تدريجياً عادت الحياة إلى طبيعتها.

طلبت شذا لقاء ريم فوافقت الأخيرة على طلبها على الفور شريطة أن تصطحب صديقتها نجاح التي تسكن القاهرة هي الأخرى.

غداً في بيتي

وما كان من شذا إلا أن استشاطت غضباً. وعندما سألت ريم عن سبب انفعالها تحججت بأنها تريد شيئاً من الخصوصية في لقاءهما الأول، ووعدتها أنهما يمكن أن يلتقيا بنجاح بعد لقاءهما بساعة.

لم تشك ريم في نوايا صديقتها المقربة التي وعدتها بعقد من الذهب كانت قد اشترته لها بمناسبة عيد ميلادها، ولكن لظروف الجائحة ظل في حقيبتها لأشهر.

اتفقت ريم وشذا على اللقاء في عطلة نهاية الأسبوع.

طلبت ريم من والدتها الحاجة سارة أن تجس نبض والدها، فهي وحيدة والديها والأقرب اليهما، دون إخوتها الذكور.

لم يستغرق اقناع الوالدة سارة وقتاً طويلاً. ولم تفكر ملياً في الأمر، بل بادرت بفتح خزانها لتخرج بعض المجوهرات وألفي جنيهه كانت ضمن مدخراتها كمصروف لرحلتها إلى القاهرة.

توجهت حاجة السارة بعد ذلك لحاج أبوبكر فوجدته مسترخياً على أريكته وهو يرتشف كوباً من القهوة كانت قد أعدته له قبل أن تقطع أنسهما ريم.

تسللت سارة بهدوء حتى لا تلفت انتباه رفيق دربها ولا تقطع حبل ذكرياته. وكانت تعرف متى ترمي بشباكها لتصطاده، فترنمت بمطلع رائعة الشاعر عمر البنا "في الطيف أو في الصحيان زورني".

كعادته طرب حاج أبوبكر وقال قولته المعهودة "كملي كملي" ..

مالت وتمايلت حاجة سارة لتعيده لأيام الصبا:

في الطيف أو في الصحيان زورني

ياحبيبي أنا عيان

مالو لو في بعض الاحيان

تسمح لي صحوا أراك عَيَّان زورني

تاخذ يا حبيب عن حالي بيان

عسى تبقى قلوبنا في الغرام سيان

زورني يا حبيبي انا عَيَّان ..



من على البعد أدركت ريم أنها حتماً ستسافر القاهرة بعد هذا الجو الرومانسي الذي افتقدته منذ زمن بعيد. أثرت ريم أن تبقى بعيداً لتندسج أمها خيوطها حول رقبة والدها، كما فعل العنكبوت بالذبابة أمام ناظر عاصم. وما هي إلا ثوان معدودة حتى دلفت حاجة سارة إلى غرفة ريم لتبلغها بخبر سعيد، وهي ما زالت تترنم على ايقاعات حاج أبوبكر على الطاولة، وهو هناك يهيمهم طرباً، مسافراً بخياله إلى أيام الصبا. نجحت خطة الأم "العنكبوتية" في "تخدير" الشيخ المغربي ثم انتزاع موافقته على سفر ابنتهما للقاء إحدى صديقاتها.. بل زادت على ذلك بأن سحبت نقوداً من محفظته لشراء بعض الهدايا لصديقتها. لم تتمالك ريم نفسها من شدة الفرح والسعادة لحصولها على موافقة والديها، بل ومصروف رحلتها. أسرع إلى غرفتها لترتيب حقيبتها وزف الخبر السعيد لصديقتها شذا. لم يفت على الحاج أبوبكر أن يطلب من ابنه الأكبر إبراهيم مصاحبة أخته في رحلتها إلى القاهرة. وبعد الاطمئنان على لقاءها صديقتها يمكنه التنزه في شوارع القاهرة أو زيارة أصدقائه هو الآخر.

غداً في بيتي

أصاب ريم الأرق وهي مشدودة طوال الليل متشوقة للقاء صديقها شذا. أيقظت ريم إبراهيم قبل ساعتين من موعد القطار لينطلقا من محطة قطار الرمل القريبة.



محطة قطار الإسكندرية

جلس إبراهيم وريم يحتسيان الشاي في كافيتريا المحطة لامضاء الوقت، فقد تبقى ساعة إلا ربعاً لانطلاق صافرة القطار.

يا لها من جلسة استثنائية طال انتظارها منذ بدء الجائحة انقضت على عجل.

كان الوقت يمر بطيئاً.

ريم تتحرق شوقاً للقاء شذا وهي شاردة الفكر تنظر متأملة لأعمدة الكهرباء على امتداد الطريق الذي يطويه القطار على عجل، ولكن ريم تراه بطيئاً لدرجة أنها يخال إليها أنها تستطيع أن تحصي عدد الأعمدة على طول الطريق.

أما صديقنا إبراهيم فقد سنحت له فرصة النوم عميقاً، بعيداً عن شاشة البلاي ستيشن والأيباد، ولم يفق إلا على صوت صافرة القطار وهو يقترب من محطة رمسيس المزدهمة في وسط القاهرة المعز.

غداً في بيتي

محطة رمسيس لم تتغير كثيراً. الباعة المتجولون تتداخل أصواتهم. باعة الصحف "أخبار، أهرام، جمهورية"، وباعة عصير العرقسوس الشهير يعترضون طريقك في كل زاوية، وهناك صوت إمراة مسنة تببع البقسماط وهي تفتش الأرض وقد اصطف مرتادو المحطة بجانبها لشهرتها.



محطة مصر بميدان رمسيس ، المصدر: ويكيبيديا

على بعد خطوات من مدخل محطة القطار تصطف عشرات سيارات التاكسي والميكروباس، لكن ريم دون أن تشاور إبراهيم قررت الصعود إلى أقرب تاكسي لينطلقا إلى ميدان صدقي في حي الزمالك للقاء شذا في أحد المقاهي الراقية.

اقتربت ريم من مدخل المقهى الشهير الذي كان خالياً وقتها، فعادة ما يرتاده الزبائن في الصباح الباكر والمساء. فقد كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد الظهر.

يزداد خفقان قلب ريم وتتسارع خطاها وهي تدور بنظرات متلهفة بحثاً عن شذا، بينما جلس إبراهيم يقرأ جريدة توضع عادة إكرامية لزبائن المقهى غير عابئ بتصرفات ريم التي يرى تصرفاتها طفولية، لا تهمة تفصيلها كثيراً. تمضي الدقائق بطيئة ولم تصل شذا بعد.

المقهي شبه خالٍ إلا من بعض الصبيان وضجيجهم الذي يملأ الأرجاء.

غداً في بيتي

كان واضحاً أنهم يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم.

وفي طاولة في زاوية نائية يراقب شاب ثلاثيني تصرفات ريم.

رأى الشاب ريم قلقة تلتفت يمنة ويسرة وهي تترقب قدوم صديقتها شذا في أي لحظة.

يزداد ارتباك الشابة السمرء مع مضي الوقت، ونظرات إبراهيم الثاقبة ترمقها بين الحين والآخر، ومع كل حركة أو تأفف يصدر منها.

مضى نصف ساعة فجئن جنون ريم.

سألها إبراهيم متهمًا: "أين صديقتك التي تحدثنا عن صدقها وروعها.. ألهذه نقطع المسافات؟!

لم تجب ريم.

توجهت صوب أحد "الجرسونات" في المقهى كانت مسؤوليته الترحيب بزبائن المقهى.

اقتربت منه ثم بادرت بالسؤال إن كان هناك فرع آخر للمقهى في ميدان صدقي وبالطريقة الكوميديّة المصرية رد قائلاً: "لا يا مزموزيل.. نحن الوحيدون".

أردف الجرسون عندما فطن لانزعاج الزبونة الشابة "أي خدمة؟!

أخرجت ريم جوالها في عجل وهي مرتبكة وراحت تبحث في غاليري الصور. "أنا منتظرة صاحبي دي".

... "لا والله ما اتشرفناش. بس اتفضلي يا مزموزيل. تكون زمانها في السكة. أصل النهار دا زحمة. كل الناس أجازة زي مانتي عارفة".

لم تنتظر ريم نهاية الجرعة الدرامية للجرسون "الرايق وبالو طويل"، وعادت أدراجها مسرعة وهي تتخبط كفتاة ثملى في منتصف النهار.

خلا المقهى بعد مغادرة الصبيان التي لم تحسها ريم. ومن على البعد ينظر الشاب الثلاثيني نظرات مريبة لم تأبه بها الصبية التي لم ترمش عيناه عنها منذ أن دلفت الى المقهى.

لم تكن ريم تعلم أن وراء تلك النظارات السوداء وذاك الشعر الأسود تختبئ صديقتها المزعومة شذا.



المصدر: صحيفة ذا غارديان

لم يخطر ببال الصبية البريئة ريم أن شذا صديقتها إسم وهي يختبئ وراءه ذئب مفترس اعتاد على استدراج فريسته بالإسلوب نفسه.

هو ذاته شادي الذي تسلل إلى غرفة نومها عبر شاشة الأيباد وهو يضع تلك الصورة المستعارة التي عرضتها على الجرسون تتساءل إن كان رآها!!

لم تكن تدرك ريم أنها محظوظة لكونها فلتت من شباك "عنكبوت" أخطر، سمه قاتل.

بعد مضي ساعة لم يحتمل الأخ الأكبر الانتظار.

اندفع نحو الكاونتر... دفع فاتورة المقهى دون نقاش، وجذب يد أخته واقتادها خارج المقهى، ودفعها بعنف داخل تاكسي كان ينتظر زبائن المقهى.. إلى محطة مصر مرة أخرى.

انسحب شادي في هدوء تام متحسرا على افلات الفريسة من خيوطه التي كادت أن تلتف حول عنقها.

خرج دون أن يلحظ أحد.

دفع فاتورته وتوارى وسط زحام ميدان صدقي ليبدأ رحلة صيد جديدة بحثاً عن صيد آخر في مياه الأسافير العكرة.

في الطريق إلى المحطة، رغم صخب الموسيقى في التاكسي، أطبق الصمت على ريم التي لم تنطق بكلمة واحدة، خوفاً من زجر أخيها الغاضب لها أمام الملاء.

ظل رأس ريم مزدحماً بالأفكار وكأنه كابوس.

تري ماذا حدث؟ لماذا لم تحضر شذا؟

لم تكن هناك أرقام هاتف متبادلة لتتصل وتسأل صديقتها الافتراضية لماذا تأخرت. فالخطة محكمة وكل الدردشات كانت مغلقة ومشفرة حتى لا تنكشف شخصية "العنكبوت" شادي.

بدأت رحلة العودة إلى الإسكندرية.

ريم محبطة وحائرة... اتكذب أم تنتظر رسالة من شذا لتعرف سبب عدم حضورها؟! لكنها أثرت الصمت عسى ولعل أن تسمع ما يريحها ويبعد هواجسها بأن صديقتها ربما تناستها، أو حدث لها أمر طارئ!

وصل القطار محطة الرمل عصراً.

الشوارع مزدحمة، لكن الصمت يلازم ريم وأخيها الغاضب إبراهيم الذي كان يسبقها الى المنزل بخطى أسرع، يركل كل ما يعترض طريقه بامتعاض.

دلف الأثنان إلى غرفهما بعد أن رحبت بهما ست الحبايب حاجة سارة المتشوقة لسماع أخبار شذا، بينما كان الأب يغط في نوم عميق كعادته بعد تناول وجبة غداء دسمة خاصة عندما تكون وجبته المفضل المعروفة "القراصة" وهي وجبة سودانية عبارة عن أقراص أكثر سمكاً من الكسرة، تشبه إلى حد ما البان كيك من حيث الشكل، وتصنع من دقيق القمح ويشتهر بها أهل الشمال، لكنها تؤكل أيضاً في سائر أنحاء السودان مع ملاح بضم الميم "إدام" البامية (الويكة) أو الملوخية أو "الدمعة" (وهي الصالونة في دول الخليج) أو ملاح "التقلية" اللذيذ الذي يصنع من اللحم المفروم والبصل والطماطم.

طويت صفحة شذا مؤقتاً بعد مرور بضعة أيام عندما اضطرت ريم لفرقة كذبة بيضاء بأن صديقتها كانت ترافق إحدى قريباتها في قسم العناية المكثفة تعرضت لنوبة قلبية ولم يسعفها الوقت للاعتذار عن الحضور.

غداً في بيتي

أما شذا (شادي) فقد توارى عن الأنظار وانصرف في حال سبيله. أغلق حسابات شذا الوهمية على وسائل التواصل الاجتماعي بعد أن باءت محاولاته بالفشل.

عادت قصة شذا إلى المشهد بعد عدة أسابيع عندما تداولت الصحف خبر القبض على شاب ثلاثيني ينتحل شخصيات بنات (من بينهم إسم شذا) ليستدرج الفتيات، لكنه وقع في قبضة المباحث بعد الاشتباه فيه عقب تلقي عدة بلاغات عن اختفاء بنات مراهقات.

ساورت إبراهيم شكوك في حادثة الزمالك فترصد بريم وبدأ يلاحقها بالتحقيقات متغمصاً شخصية المحقق كونان، لم لا وهو من كان معجباً بكتاب التحقيقات الشهير "ألفريد هيتشكوك والثلاثة محققين".

لم يستغرق الأمر طويلاً مع إبراهيم لاكتشاف خيوط الجريمة التي كادت أن تدمر حياة أخته الصغرى بفعل طيش "الشبكة العنكبوتية".



المصدر: موقع النيلين

اعترفت ريم لإبراهيم بأن شذا ربما تكون شادي نفسه، خشية أن يضرها وهو أسلوب يتبعه مع اخوته الصغار للاعتراف على طريقة المحققين.

وحتى لا تصاب الأم بالصدمة أسر إبراهيم لأبيه بالخبر راجياً منه ألا يناقش الموضوع حتى مع ريم نفسها.

غداً في بيتي

وأخيراً جاء دور المفتش العام البروفيسور الذي استذكر مغامرات مصطفى سعيد وبعد أن حمد الله على نجاة ابنته البريئة من الوقوع فريسة لذئب الزمالك المفترس أصدر تعليمات وتحفظ على كل أدوات الجريمة لتزوي ريم بعيداً عن الأنظار وتدخل في نوبة هستيرية من البكاء وحالة نفسية اضطرت بسببها الأسرة لعرضها على طبيب نفساني.

لكن الحالة لازمتها لوقت طويل وكانت سبباً في انعزالها كلياً عن العالم الخارجي.

اختفاء عاصم

لم تستفق أسرة أبوبكر من صدمة حادثة ريم حتى وقعت الطامة الكبرى. فرغم انقطاع التواصل بين ابن آوى وعاصم اختفى الأخير في ظروف غامضة، بعد أن انزوي في غرفته خوفاً من طعم ابن آوى بعد حادثة الصراف والخوف من اكتشاف أمره.

كانت ساعة الصفر قد اقتربت بعد تأجيل عملية ملعب استوكهولم نظراً لعدم جاهزية أفراد المجموعة المكلفة بالتنفيذ.

خرج الأخوان إبراهيم وأحمد يبحثان في الشوارع والأزقة الضيقة في كل الأحياء والحواري في محطة الرمل وسط مدينة الإسكندرية. لم يتركا شبراً في أحياء الأزاريطة و السلسلة و الشاطبي شرق المحطة ولا المنشية و الانفوشي و راس التين و المينا غرب المحطة. بل وصلا إلى كرموز في الجنوب.

خرج الحاج أبوبكر متجهاً صوب مركز شرطة الرمل للإبلاغ عن اختفاء ابنه في ظروف غامضة.

"ما تقلقش يا حاج. إن شاء الله ابنك يرجعك خلال ساعة زمن"، هكذا كان حديث مأمور الشرطة الذي تلقى البلاغ وهو يطلب من الأب المفزوع الجلوس على كنبه يجلس بها ستة رجال بينهم مخبرون.

ولما شاهد مأمور الشرطة القلق والدموع تتقاذف على خدي الحاج أبوبكر رفع سماعة التلفون في رسالة تطمينية له "يا ريس عندنا حالة طارئة. اختفاء شاب مراهق والده يبشك إنه اختطفته جماعة متطرفة".

وبعد انصات لبرهة لرئيس القسم، توجه المأمور للحاج أبوبكر وربت على كتفه قائلاً في نبرة مليئة بالعطف واحترام شيبته: "سعادة المقدم أمر بتكوين فريق تحريات فوراً".

وأردف قائلاً: "عايزينك يا حاج بس تهدأ وتدينا كل معلومات تعرفها".

غداً في بيتي

أدخل الحاج أبوبكر وهو يتوكأ على عصا لم يعتد حملها إلى غرفة واسعة ذات سقف عال يتوسطها مكتب فخم هو مكتب سعادة المقدم رئيس القسم وإلى جواره "تريزة" صغيرة منفصلة هي عبارة عن مكتب مصغر لشرطي برتبة عريف يدون كل صغيرة وكبيرة.

استغرقت التحريات ساعتين مع الأب الذي لم يملك كثيراً من المعلومات. كان من يملك الكثير من التفاصيل هو المحقق إبراهيم الأخ الأكبر الذي مارس هوايته مع عاصم بنفس طريقة تصرفه مع اخته ريم عندما اطلع على محادثاته مع ابن أوى قبل تأجيل العملية ونسيان الحادثة.

والحال كذلك، رن هاتف الحاج أبوبكر وكان الطرف الآخر هو الحاجة سارة التي كانت حبيسة جدران البيت هي وريم في انتظار عودة الابن المختفي. وقبل أن تتحدث إليه رن جرس الباب، فهرعت نحو الباب لتفاجأ بإبراهيم وأحمد وحدهما، فصرخت "عاصم ولدي وين؟!

الأب يتابع الأحداث عبر سماعة هاتفه التي لفها بطرف عمامته الطويلة ناصعة البياض حتى يخفف من صوت صراخ الحاجة المكلمة سارة في حضرة سعادة المقدم.

انتبه أحمد إلى أن والده على الخط فخطف الهاتف من يد والدته التي كانت في نوبة بكاء هستيرية، وهمس بصوت متحرج: "أبوي ما لقينا عاصم".

حاول الأب أن يللم شجاعته ويهدئ من روع أحمد، فطلب منه أن يخبر أمه بأنه في قسم الشرطة ووعدوه بعودة عاصم خلال ساعة.

طلب الحاج أبوبكر من أحمد وإبراهيم الحضور فوراً إلى قسم الشرطة.

هرع الأخوان إلى القسم.

دخلا القسم ركضاً فأوقفهما شرطي محققاً معهما عن سبب ركضهما قبل أن يتدخل أحد أفراد فريق التحري ليتركهما وشأنهما. فاقتادهما الأخير إلى مكتب المقدم.

كان موقفاً حرجاً شابه التوتر.

بدأ التحقيق على الفور. فليس هناك متسع من الوقت لاضاعته في أحاديث جانبية أو بكاء لا جدوى منه.

لطبيعة التحريات طلب من الحاج أبوبكر وابنه أحمد البقاء خارج مكتب المقدم.

بدأ التحري مع إبراهيم الذي لم يبخل بكل معلومة يعرفها قد تقود إلى العثور على أخيه، مستعيناً بخبرته النظرية في التحقيقات.

غداً في بيتي

لم يستغرق الأمر طويلاً مع سعادة المقدم الذي هاتف رئيس فريق التحري "بلغ كل نقاط العبور والمنافذ بتوقيف أي مشتبه به. عندنا اشتباه في حادثة اختطاف."

أردف المقدم: "المختطف ممكن يكون في طريقه إلى خارج الدولة عن طريق أحد المعابر الجوية أو البرية".

عمم رئيس فريق التحري الأوامر على كل مراكز شرطة المنافذ مع صورة شخصية وصورة جواز سفر عاصم البريطاني.

بحنكة ضابط المباحث وحسه الأمني العالي طلب سعادة المقدم من الحاج أبوبكر وإبنه العودة إلى المنزل لانتظار عودة الإبن المختفي.

جهزت سيارة شرطة لتقل ثلاثتهم إلى المنزل.

وما أن رن جرس الباب إلا واندفعت الحاجة سارة وابنتها ريم نحو الباب الذي كانتا تجلسان بجواره.

ولما رأتا الأب والأخوين ولاحظتا اختفاء عاصم دخلتا في بكاء هستيري وهما تتمتمان "وين عاصم؟! ولا أحد يجيب.

ساد صمت رهيب أرجاء المنزل.

سقط الحاج أبوبكر مغشياً عليه بسبب انفعاله وغليان الدم في عروقه.

تسارعت الأحداث. هرع إبراهيم إلى الشارع ولم يخطر على باله الاتصال بالإسعاف. أوقف سيارة تاكسي أقلت والده إلى مستشفى خصوصي على بعد أمتار من المنزل.

نسي إبراهيم اختفاء أخيه فالمصيبة أكبر أمامه. إنها مسألة حياة أو موت. فالحاج أبوبكر يعاني من مشاكل في عضلة القلب وارتفاع ضغط الدم. طمأنه الطبيب بعد فحص أولي أن الحالة ليست خطيرة، ربما تكون جلطة خفيفة. وسأله إن كان تعرض لموقف ما أو صدمة وما هي حالته الصحية.

بعد إكمال الفحوصات الأولية وبعض صور الأشعة تبين أن الحاج إبراهيم أصيب بجلطة ربما تسوء حالته تدريجياً.

هاتف إبراهيم والدته ليخبرها بما حدث لتمرع بدورها إلى المستشفى وتتسمر بجواره في غرفة العناية المكثفة، حيث طلب من البقية التوجه إلى قاعة الانتظار.

ساعات حالة الحاج أبوبكر الصحية وبدأ الدم يتجمد في أطرافه.
لاحظت حاجة سارة برودة في قدميه وكفيه.



صورة أرشيفية من موقع اليوم السابع

أبلغت الطبيب الذي كان يتوقع حدوث ذلك. لم يخف عنها أنه أصيب بشلل جزئي، ولكن بإذن الله سيتعافى منه مع علاج الجلطة.

استمر الحال والحاج أبوبكر من سئ إلى أسوأ. ونظرا لتكلفة المستشفى الخاصة العالية نصحهم الطبيب بكل أمانة أن ينقلوه إلى المنزل، مع ضرورة بدء علاج طبيعي في المستشفى نفسه.

في تلك الأثناء، باءت محاولات العثور على عاصم بالفشل. فقد سبق السيف العذل. فالجماعة تمكنت من تهريب عاصم عن طريق مطار القاهرة الدولي وساعد جواز سفره الأوروبي في تسهيل عملية الخروج.

لم يكن عاصم متحمساً للانضمام للجماعة المتطرفة، ولكن تهديدات ابن أوى المستمرة له لحد التهديد بتصفية أسرته جعلته يوافق على كل الشروط.

كان على مدار الساعة يتضرع إلى الله أن تفشل العملية دون اكتشاف أمره.

هم بالهمس في أذن أحد الضباط في المطار، ولكن الرقابة كانت لصيقة من مرافقيه الشرسين اللذين يتطير الشرر من عينيهما.

أقلعت الطائرة قبل أن يصل التعميم إلى مركز أمن المطار.

استسلم عاصم وهو يجلس بين فكي كاماشة في مقعد ثلاثي عند مخرج الطوارئ، اختير بعناية في حال حدث طارئ أممي ليتمكن المرافقين من تنفيذ عملية هروب تشبه عمليات الرهائن في أفلام هوليوود.

تظاهر المرافقان يمين ويسار عاصم بالنوم، بينما الصبي يحبس أنفاسه ولم يستطع حتى طلب الإذن للذهاب إلى الحمام، وهو فعلاً كان من ضمن محاذير الرحلة وفق تعليمات ابن أوى.

هبطت الطائرة في مطار استوكهولم التي تفصلها مسافة 4400 كيلومتر عن القاهرة. استغرقت الرحلة زهاء الخمس ساعات قضاها عاصم متمسراً يكاد ينفجر.

الرقابة محكمة على كل تحركات عاصم من مرافقيه اللذين لازماه في كل خطوة يخطوها، وكان لزاماً عليه الالتزام بتعليماتهما والتظاهر بأنه زميلهما في نادٍ رياضي، كما اتفق مع ابن أوى.

عند مدخل صالة الوصول في اتجاه جوازات المطار، فانت على مرافقي عاصم أنهم سيفترقون لكونه يحمل جوازاً أوروبياً، ولا يخضع لعمليات تفتيش مثلهم.

وفي لحظة افتراقهم ركض عاصم صوب حمامات المطار ليلفظ سموم الرحلة الطويلة التي كاد أن يتسمم جسمه بسببها.

لم تكن الحمامات تبعد كثيراً عن البوابة المخصصة لحملة الجوازات الأوروبية.

وبمجرد مسح جوازه في جهاز المسح الإلكتروني أصدر الجهاز ضوءاً أحمر انطلقت بعده صافرة انذار طويلة هرع بعدها على الفور ضابطان كانا ينتظران قدوم الصبي المختطف وفقاً لبلاغ من شرطة الانتربول كانت قد عممته وزارة الداخلية المصرية بعد أن وصلت بيانات من مطار القاهرة بمغادرة عاصم على متن الطائرة المتجهة إلى استوكهولم بصحبة عناصر جماعة إرهابية توصلت المباحث المصرية إلى معلومات أنها تخطط لتنفيذ عملية تفجير في ملعب بمدينة استوكهولم، زودها بها إبراهيم بعد أن أفادهم بما دار بين ابن أوى وعاصم.



أمن مطار استوكهولم (المصدر: موقع ذا لوكال دوت كوم)

عثر على كل تفاصيل الخطة التي صدرت أوامر لعاصم بحذفها قبل مغادرة المنزل بعد أن تمكن فريق "الهاكر" التابع للمباحث من استرجاع كل المعلومات مما أدى إلى كشف المخطط.

طمأن الضابطان السويديان عاصم بأنه سيكون بخير وسيعود أدراجه إلى مصر بعد اكتمال التحقيقات معه. لم يخف عاصم تفاصيل ما جرى على فريق الأمن السويدي المختص الذي حصل على كل تفاصيل الحادثة ومجموعة إبن أوى وما تخطط له.

تنفس عاصم الصعداء بعد أن علم قرار تسليمه للسلطات المصرية بحكم أنه مختطف من الدولة للتنسيق مع السفارة البريطانية بعد انتهاء التحري معه.

في المقابل، وبناء على الملابس واعترافات عاصم تم القبض على عنصري الجماعة وافشال المخطط بعد مدهمة بقية عناصر المجموعة التي كانت تستأجر شقة بالقرب من الملعب.

براءة عاصم واطلاق سراحه

أطلق سراح عاصم بعد ثبوت براءته بناءً على ما أدلى به من اعترافات فيما يصطلح عليه في العرف القانوني "بشاهد ملك"، حيث أنه أكره تحت التهديد بالقتل لينضم إلى المجموعة.

عاد عاصم إلى أحضان أسرته بعد رحلة عودة لقي فيها رعاية خاصة من طاقم الطائرة ولم يفت على فريق الأمن إرسال حارس أمني مرافقاً له كاجراء احترازي، تحسباً لأي طارئ، إضافة الى مراقبة تحركاته، دون علمه.

الأمن المصري بدوره استقبل عاصم وكلف فريقاً للمراقبة. اصطحبه الفريق لمركز شرطة المطار لاجراء تحريات أولية. وطلب منه ابلاغ أقرب قسم شرطة بعودته مع تزويد القسم بتفاصيل سكنه وهاتفه.

ونظراً لكونه قاصراً، لم يخضع الصبي لتحريات دقيقة، ليفرج عنه ويصطحب إلى منزله الذي كان يعج بالمهنيين.

كان يوماً سعيداً اختلطت فيه الدموع بمشاعر الفرح.

توافدت جموع الأصدقاء والأقارب والجيران مهينة بعودة عاصم في سهرة التقى فيها الليل بساعات الفجر الأولى قبل أن يغادر الجميع ليمنحوا الأسرة المتعبه فسحة من الوقت لتأخذ قسطاً من الراحة.

حتى الحاج أبوبكر أجلس على كرسيه المتحرك يومئ لهذا ويضحك ويبكي تارة. حتى ريم تحولت في لحظة لتلك الصبية الحيوية وكأنها كانت فاقدة للذاكرة فعادت شخصيتها سيرتها الأولى.

نام الجميع بالأطفال.. لكن لم تخل ليلتهم من الكوابيس. كلٌ يتفقد ويتحسس عاصم بين الحين والآخر.

عند الصباح التأم شمل الأسرة بعد طول غياب.

تحلق الجميع حول كرسي الأب المقعد. أحاطوه بكل ما افتقده طول فترة الجائحة التي بدأت تنقشع، منفصلين تماماً عن عالمهم الافتراضي الذي كاد أن يدمر الأسرة بأكملها.

أحس الحاج أبوبكر بقشعريرة وارتجاف في كل أطرافه وبدأ جسمه النحيل يزداد ارتجافاً، كأنه أصيب بصدمة كهربائية.

هرعوا به الى المستشفى خوفاً من تكرار ما حدث، لكن كانت المفاجأة، فقد بشرهم الطبيب الذي يشرف على حالته بأن هذه بشریات عودة الجسم إلى طبيعته.

لم تستطع حاجة سارة كتمان زغرودة طويلة أهترت لها جدران غرفة الطوارئ.

الفصل الرابع: عودة المياه إلى مجاريها

غداً في بيتي

مع انحسار الوباء ببطء، وجد الأبناء أنفسهم يتوقون إلى شيء أكثر من الاتصالات الافتراضية التي أدمنوها حد الثمالة. تسرب الملل والشعور بالفراغ عبر أبواب غرفهم المغلقة، مما دفعهم بعد أن صحي ضميرهم للبحث عن أحضان والديهم التي افتقدوها كثيراً. وكان ذلك إيذاناً بعودة المياه إلى مجاريها بعد ركود طال أمده.

بدأ الحاج أبوبكر، وهو محاط بدفء أسرته، يشعر ببصيص من الأمل. بفضل اهتمام ورعاية أحبائه والعلاج الطبيعي المكثف، استعاد قوته تدريجياً، مما سمح له بالوقوف والمشي مرة أخرى.

مع متابعة الأبناء مراحل الشفاء التي يخوضها والدهم، تعلموا دروساً لا تقدر بثمن حول الصمود وقوة الحب. تعمقت روابطهم كعائلة بشكل أكبر، مما عمق انتماءهم للأسرة، منطلقين من الثبات الذي يظهره والدهم كل يوم، وبركة دعاء الوالدين في جوف الليل أن يصلح الله حالهم.

معاً، احتفلوا بكل إنجاز، مهما كان صغيراً، وشجعوا بعضهم البعض على الاستمرار في السعي إلى الأمام.

لم يعودوا أولئك الأطفال، الذين كانوا يشعرون بثقل ورتابة العزلة، يشتاقون إلى العالم الخارجي، فقد أصبحت عائلتهم ملاذهم الأول والأخير ومصدر سعادتهم وإشباع احتياجاتهم.

وهكذا، في أعقاب الجائحة، ظهرت العائلة ليس فقط أقوى جسدياً، ولكن أيضاً متصلة عاطفياً لدرجة لم يتخيلوها.

كان هذا الفصل في كتاب حياتهم نقطة تحول لا تنسى. كانت مرحلة تذكرهم بأنه حتى في مواجهة الصعاب، أيا كانت، هناك أملٌ وتعافٍ يمكن بلوغه فقط بحب وتكاتف ووحدة العائلة.

أدركوا جميعاً أن قوة التلاحم والتآزر بين أفراد الأسرة يمكن أن تحول الحياة، وتساعد الأفراد على التغلب على قيودهم وبناء بيت سعيد يسوده الحب والوئام.

من خلال استكشافهم لوسائل التواصل الاجتماعي، اكتشفت عائلة الحاج أبوبكر الآثار الإيجابية والسلبية التي يمكن أن تحدثها على الحياة الأسرية. وجدوا أن هذه الوسائل ساهمت إيجابياً ببقاء الأسرة الصغيرة على اتصال مع أفراد الأسرة الممتدة على الدوام أياً كانوا. لكنهم في الوقت ذاته أكتشفوا الجانب المظلم لوسائل التواصل الاجتماعي: التنمر عبر الإنترنت، والسلوكيات التي تسبب الإدمان، وانعدام صلة الرحم.

استوعبت أسرة بروفيسور أبوبكر الدرس، واستطاعت بفضل حكمة وذكاء وخبرة وإيمان البروفيسور المتقاعد أن تستقي العبر وتقف على الآثار الإيجابية والسلبية لوسائل التواصل الاجتماعي على الأسرة.

فمنصات التواصل الاجتماعي تمتلك القدرة على جعل الأسر أكثر قرباً، حيث أنها تختصر المسافات الجغرافية والحوازر الزمنية.

غداً في بيتي

من خلال النقرة على زر، يمكن لأفراد العائلة الذين تفصلهم المحيطات مشاركة أقرانهم أفرانهم ومواساتهم في أحزانهم والوقوف معهم وقت الشدة. كما يمكن للأجداد الاستمتاع بالدفء الذي ينبعث من وجود أحفادهم حولهم. ساعد الانترنت الأقارب على التواصل على الدوام ودون مقابل مادي على كثير من المنصات، بغض النظر عن الحواجز الجغرافية.

لكن، مع الكم الهائل من الايجابيات، هناك الكثير من من المخاطر والتحديات. فإدمان وسائل التواصل الاجتماعي يمكن أن يؤدي إلى تفكك وشرخ نسيج ووحدة الأسرة.

إدراكاً للتأثير الضار لإدمانهم لوسائل التواصل الاجتماعي، سعت عائلة الحاج أبوبكر إلى معالجة المشكلة بشكل مباشر حيث قاموا بتثقيف أنفسهم حول سلبيات إدمان هذه الوسائل، وطبقوا استراتيجيات لاستعادة حياتهم من براثن وسائل التواصل الاجتماعي، والتملص من خيوط العنكبوت التي ظلت ملتفة حول أعناقهم.

وما لبثوا ان وجدوا تدريجياً توازناً بين العالم الافتراضي والعالم الواقعي، بعد إدراكهم أن التفاعل والتواصل وجهاً لوجه لا يقارن مع روبوتات لا إحساس لها مهما بلغت من الحداثة والتطور.



المصدر: عربي بوست

دروس وعبر

كاد أن يؤدي الانغماس في العالم الافتراضي، وخاصة في فترة جائحة كورونا الى تدمير عائلة بروفييسور أبوبكر كلياً. فكم من أسرة دمرها هذا الإدمان. حالات وفاة، حالات انتحار، وقتل، وطلاق، وانفصال، واغتصاب، وانحراف لا تحصى وثقتها وسائل التواصل الاجتماعي نفسها.

أصيب بروفييسور أبوبكر بصدمة عندما قرأ في تقرير اصدته منظمة الصحة العالمية قدر "عدد من ماتوا منتحرين بلغ في عام 2020 (في أوج فترة الجائحة) حوالي 1.53 مليون شخص. وقد عزي ذلك لإدمان استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الذي يؤثر على حياة الناس ويغيرها خاصة المراهقين. وتم تحديده على أنه ظاهرة غير فردية تتأثر بالعوامل الاجتماعية والبيئية". (5)

كما أصيب بقلق بالغ عندما طالع في تقرير آخر أن "منصات التواصل الاجتماعي مثل غرف الدردشة والمدونات مثل (تمبلر وريديت)، ويوتيوب، ومواقع الشبكات التواصل الاجتماعي بما فيها تويتر وفيسبوك وماي سبيس وغوغل، إضافة إلى تطبيقات التواصل النصي ومحادثات الفيديو غيرت الطرق التقليدية للتواصل من خلال السماح بالمشاركة الفورية والتفاعلية للمعلومات التي يقوم الأفراد والمجموعات والمنظمات والحكومات بإنشائها والتحكم فيها. (بما في ذلك المنظمات الإرهابية والمافيا). (6)

وهذا تماماً ما حدث مع ابنه الأصغر عاصم الذي انقذته الرعاية الإلهية من فك جماعة مفترسة.

يُعتبر الانتحار، وفق ما طالعه في تلك التقارير، من الأسباب الرئيسة للوفاة لدى الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 10-24 عاماً. (7)

تعلمت أسرة الحاج أبوبكر أن تواجد المستخدمين على بعض مواقع التواصل الاجتماعي يجعلهم عرضة للمضايقات من المفترسين الإلكترونيين. فنظراً لوجود كم هائل من المعلومات الشخصية المتوفرة على هذه المواقع، فقد ازدادت مخاطر إمكانية وصول مرتكبي الجرائم الجنسية إلى هذه المواقع. وقد يحاولون باستخدام هذه المعلومات الشخصية المعروضة كسب ثقة المستخدم، مما يجعل المستخدم عرضة للهجمات والإغراء أو الاستمالة الجنسية. وقد يتمكن المجرمون بعد ذلك من إغراء المستخدمين وجهاً لوجه حيث يعرضونهم للتحرش أو الاعتداء الجنسي. وهذا ما كاد أن يحدث مع ريم التي كانت على بعد خطوات من ذنب بشري مفترس.

أما التنمر، الذي هربوا من شبحة من المملكة المتحدة، فقد أشارت احصاءات تم جمعها بين عامي 2004-2010 عبر الدراسات الاستقصائية إلى أن معدلات إيذاء التنمر على الإنترنت قد تراوحت بين 20.8٪ و 40.6٪ وتراوحت معدلات الإساءة من 11.5٪ إلى 20.1٪ (8)

عائلة أبوبكر ليست استثناء

لقد كانت رحلة صعبة لعائلة أبوبكر. واجهت الأسرة المحافظة المتدينة قبضة إدمان وسائل التواصل الاجتماعي، لكنهم كانوا مصممين على إيجاد طريقة لاستخدامه بمسؤولية واستعادة السيطرة على حياتهم. على مدى أشهر متتالية، عملوا معاً ، ودعموا بعضهم البعض خلال فترات الصعود والهبوط في التخلص من السموم الرقمية. الآن، أصبحوا مستعدين لبدء فصل جديد في حياتهم، حيث لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دورًا إيجابيًا ومتوازنًا.



المصدر: موقع النيلين

جلسوا معاً في غرفة معيشتهم المريحة بعد طول غياب، محاطين بالحب والدفء، تتعالى ضحكاتهم. وفي المقابل بدأ الزوجان العودة لحياتهما الطبيعية.

غداً في بيتي

تحدثت الأم سارة أولاً ، وكانت عيناها تشعان بالإصرار. قالت بلكنة مصرية وكأنها بطلة لمسلسل مصري "كنا فين وبقينا فين... وهي تتأمل أبناءها وتنظر في خجل وعطف صوب زوجها الذي دبت الحياة في أوصاله بعد رحلة معاناة مع المرض إثر الصدمات المتتالية التي تعرض لها وأسرته.

أردفت الحاجة سارة "عايزين الليلة نتكلم عن الكمبيوتر والانترنت ونشوف حل للمشكلة دي."

أوما الأب بالموافقة. ثم قال "خلونا يا أولاد نبدأ صفحة جديدة ونكون عقلانيين." وأضاف وكأنه يلقي محاضرة أمام طلابه بعد طول غياب ولكن باللغة العربية: "سنصمم مساحات خالية من التكنولوجيا، على الأقل أثناء وجبات الطعام وقبل النوم."

الإبنة الوحيدة التي خرجت بعد عناء من عزلتها قالت وكأنها تكبر اخوتها سنأ "لازم يا اولاد ننمي ثقافة التواصل المفتوح. لازم نبتعد عن الاستخدام المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي. ولو شعر واحد بالشك أو بالارتباك لازم يبادر ويتكلم. مافي أسرار بعد اليوم. وقد أعذر من أنذر،" هكذا جاءت نبرتها تهديدية، ولم تنس شرحها للأخوة الخواجات "Forewarned is forearmed"، ضحك الجميع بمن فيهم أخوتها، الذين رضخوا واستمعوا لها، فرحين بخروجها من عزلتها.

عاصم بدوره، رغم أنه الأصغر سنأ، انتهز فرصة هامش الحرية الذي فتح أمام أخته "والله أنا أويد كلام ريم لازم نبحت عن هوايات واهتمامات جديدة. ليه ما نشوف أنشطة غير متصلة بالإنترنت كعائلة. خلونا نصحي شوية. نبدأ برمجة رحلات ترفيهية، نزهاات في الطبيعة، الجيم!"، ولم يستطع عاصم إكمال جملته بعد أن قاطعه الجميع عند سماع الحاجة سارة، التي أطلقت إنذاراً بأن يستعد الجميع للعشاء.

لم يعلق إبراهيم وأحمد واكتفيا بملاحظات أبويهما وريم وعاصم، ودلفا إلى طاولة الطعام التي احتوت ما لذ وطاب، احتفاء بالتثام شمل الأسرة بعد طول غياب.

كانت غرفة الجلوس التي يطلق عليها في السودان "الصالون" مليئة بالإثارة والتفاؤل والأمل في طي صفحة الماضي وفتح صفحة جديدة.

أدركت عائلة أبوبكر أن وسائل التواصل الاجتماعي يمكن أن تكون أداة قيمة عند استخدامها بمسؤولية وحزم.

لقد فهموا أن الأمر متروك لهم للسيطرة واتخاذ خيارات واعية بشأن وجودهم على الإنترنت.

مع مرور الأسابيع والأشهر، نفذ آل أبوبكر خطتهم.

كرسوا وقتاً جيداً للتواصل كعائلة، واستكشاف أنشطة جديدة وتعزيز الروابط الأعمق لاكتشاف ذاتهم أولاً وأخيراً.

غداً في بيتي

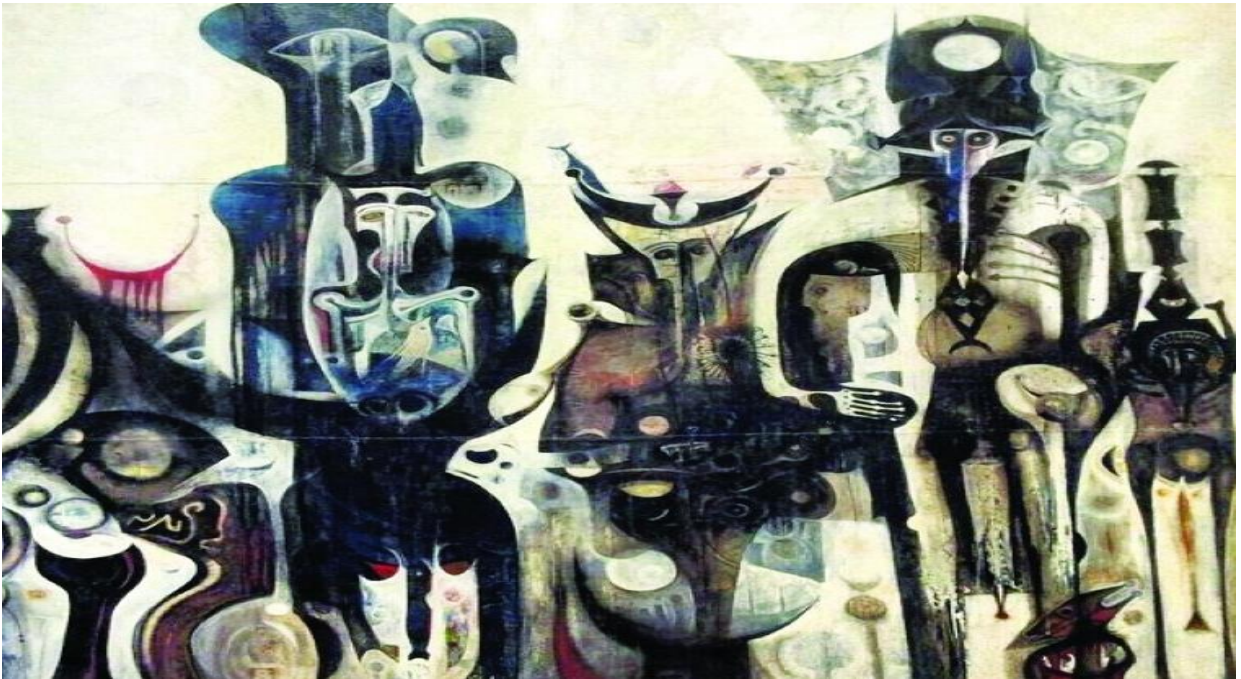
وجدوا أنفسهم يستمتعون بكل لحظة يقضونها سوياً، بدلاً من الشكوك ومحاولات البحث باستمرار عن التحقق من الصحة أو مقارنة أنفسهم بالآخرين عبر الإنترنت.

اكتشف إبراهيم وأحمد وريم وعاصم متعة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للاستمتاع بوقتهم فيما هو ممتع ومفيد في آن معاً. أدركوا أن التواصل مع الأفراد ذوي العقول النيرة، والتفكير الإيجابي، ودعم القضايا التي يهتمون بها هو ميزة توفرها منصات التواصل الاجتماعي أيضاً. استخدموا منصاتهم لنشر الإيجابية والترويج للاستخدام المسؤول للإنترنت. من خلال القيام بذلك، أصبحوا مؤثرين بمعنى مختلف – أصبحوا نماذج يحتذى بها الآخرون.

من خلال رحلتهم، أدركت عائلة أبوبكر أن قوة وسائل التواصل الاجتماعي لا تكمن في عدد الإعجابات أو المتابعين، ولكن في التأثير الإيجابي الذي يمكنهم إحداثه، سواء داخل أسرهم أو في العالم الخارجي.

لقد وجدوا توازناً متناغمًا، باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي كأداة للتواصل والإلهام والنمو الشخصي، مع الحفاظ على رفاهيتهم والاعتزاز باللحظات الثمينة في وضع عدم الاتصال.

تعلمت العائلة أن الاستخدام المسؤول لوسائل التواصل الاجتماعي لم يكن مجرد مسعى فردي، بل كان جهدًا جماعيًا. ولم يدخلوا على أصدقائهم وعائلاتهم الممتدة باسداء النصح لهم لإعادة تقييم علاقاتهم عبر الإنترنت، مما أحدث تأثيرًا إيجابيًا في مجتمعهم المحيط.



المصدر: موقع النيلين

غرباء في بيتي

وهكذا، شرعت عائلة بروفيسور أبوبكر في فصل جديد - فصل مليء بالحب والشغف والالتزام بالقيم والمبادئ عند استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، حتى يضمنوا بقاء روابط أسرهم قوية.

وهكذا طوت العائلة صفحة مظلمة كان فيها الأبناء "غرباء في بيت أبيهم" وكادت أن تنتهي بتفكك الأسرة، لتفتح صفحة جديدة ناصعة البياض لحياة مفعمة بالسعادة والأمل والتفاؤل.

المصادر

المراجع العربية:

1- موسوعة ويكيبيديا:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%88%D8%A7%D8%AF%D9%8A_%D8%AD%D9%84%D9%81%D8%A7

- 2- د. منيب إبراهيم فقير، صفحات من تاريخ وادي حلفا
- 3- موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر 2004
- 4- المرجع السابق

المراجع الإنجليزية:

5. Tingle ،John (11 June 2015 "Preventing suicides: developing a strategy". British Journal of Nursing .:11 .24 . 593–592. DOI:10.12968/bjon.2015.24.11.592. ISSN:0966-0461.
6. David D. Luxton, Jennifer D. June and Jonathan M. Fairall (2012) ، "Social Media and Suicide: A Public Health Perspective" ،American Journal of Public Health ،102 .، S195–S200 ،DOI:10.2105/AJPH.2011.300608 ،PMC:3477910 ،PMID:22401525
7. Napolitano ،Tonianne (2013-01-01). Cyberbullying and Middle School Student: Internet Behavior and Perceptions of Internet Risk (Thesis). JOHNSON & WALES UNIVERSITY.
8. Hinduja, S., & Patchin, J. W. (2010). Cyberbullying research center.

حول هذا الكتاب

يحكي الكتاب عن معاناة أبٍ بسبب جفاء وقسوة قلوب أبنائه الذين أدمنوا منصات التواصل الاجتماعي حتى أحس بأنهم "غرباء في بيته"، حيث تباعدت المسافات بين القلوب أميالاً، برغم قرب أجسادهم الجامدة كجثث هامدة في غرف متجاورة.

الأم والأب ليسا استثناء ولكنهما أحسن حالاً لكونهما تجمعهما غرفة واحدة. الحديث ليس هنا عن صلة الرحم، بل عن جفوة مريرة أحدثت شرخاً عميقاً في نسيج الأسرة، فأصبح لقاء الأب بأي من أبنائه الأربعة يتباعد شيئاً فشيئاً. يطول فيطول ليصبح بارداً كلقاء "الغرباء".

أدى إدمان الإبن الأصغر على العالم الافتراضي إلى اختطافه من قبل جماعة متطرفة استدرجته عبر ألعاب البلاي ستيشن. فكانت القشة التي قصمت ظهر الأب الذي أصيب بشلل تام على اثر هذه الحادثة، ولم يجد الا زوجته بجواره. فالأبناء كل يهيم في عالمه الافتراضي الخاص. لكن هذه الحادثة أيضاً جعلت الأبناء يفتقدون أباهم الذي كان عمود البيت. فبدؤوا يلتفون من حوله، ثم يتخلون شيئاً فشيئاً عن آفة العالم الافتراضي التي كادت أن تودي بحياته وتفكك الأسرة، فدبت الحياة في أوصال الأب ليتعافى تماماً وعادت الروح والإلفة للأسرة بعد طول غياب.



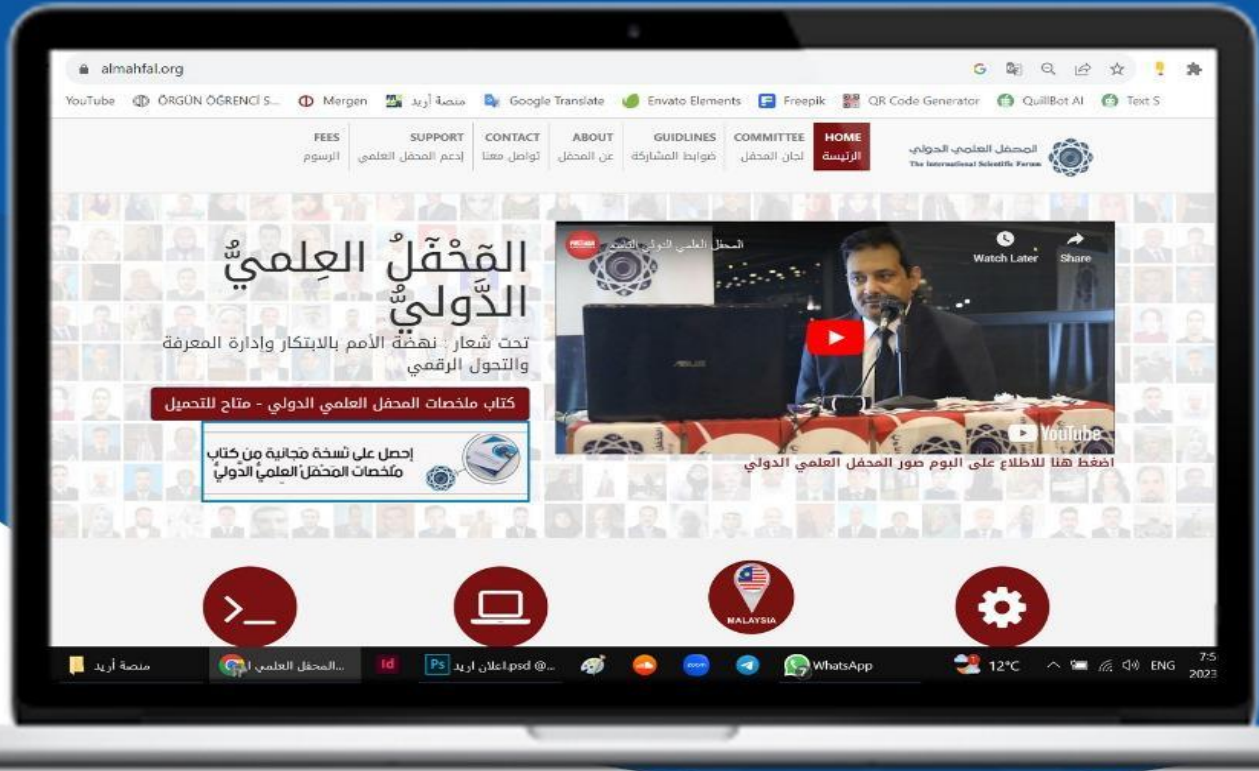
معاوية الياس إبراهيم

كاتب وإعلامي سوداني

- ولد في أيلول/سبتمبر 1961 بولاية الجزيرة في وسط السودان
- درس الترجمة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ومعهد لامبيث بلندن، ثم تلقى دراسات إعلامية وإسلامية مقارنة بجامعة المملكة المتحدة منها دبلوم عالي في دراسات الإدارة الاستراتيجية وماجستير العلوم الإدارية من جامعة كارديف ميتروبوليتان في ويلز.
- بدأ العمل في الصحافة في مطلع التسعينات في لندن بالمملكة المتحدة، وشغل مناصب متقدمة في عدد من الصحف العربية من بينها القدس العربي و"السودان" اللندنيتين، منها مدير تحرير للأخيرة.
- في الفترة بين 1996 و 2006 عمل في صحيفة "خليج تايمز" الصادرة في دبي بدولة الامارات العربية المتحدة إلى أن شغل منصب كبير المرسلين الصحفيين ثم مساعدا لرئيس التحرير.
- إنتقل للعمل في الإعلام المؤسسي في القطاع العام في أبوظبي في العام 2006 واستمر في العمل به في مختلف المناصب كان آخرها مستشارا للموارد البشرية.
- أسس مركز "ارابيا ميديا هاب" للإعلام بمدينة الشارقة للإعلام (شمس) بدولة الامارات، ويشغل حالياً منصب المدير التنفيذي فيه.
- حصل على العديد من الجوائز الإعلامية المرموقة تقديراً لاسهاماته وتميزه في المجال الإعلامي والأدبي والثقافي.



المحفل العلمي الدولي



يُعد "المحفل العلمي الدولي" وعاءً علميًّا خاصًّا بأعضاء منصة أريد، يستوعب ما يمكنهم القيام به من أنشطة وفعاليات علمية، وثقافية، وفكرية، وتواصلية، تُحقِّق الفائدة للمنصة وأعضائها في ضوء ما أقرّه أعضاء اللجنة التحضيرية لهذا المحفل من قيم، ورسالة، ورؤية.

منصة أريد العلمية

ARID Scientific Platform



منصة أريد هي منظمة غير ربحية تتيح التسجيل المجاني لتحقيق أهداف علمية متعددة الأوجه. تم تأسيسها من قبل باحثين وخبراء مهتمين بتطوير البحث العلمي.

مقرات المنصة: بريطانيا - ماليزيا - العراق - تركيا (13467806) ARID SCIENTIFIC LTD
All rights reserved - Address: 128 City Road, London, EC1V 2NX

● WWW.ARID.MY للتسجيل مجاناً في المنصة



Arid



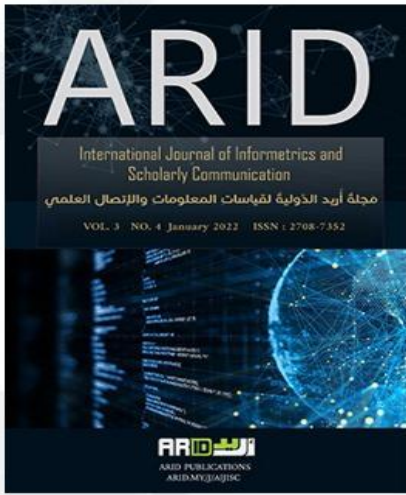
Arid

مجلات أريد الدولية

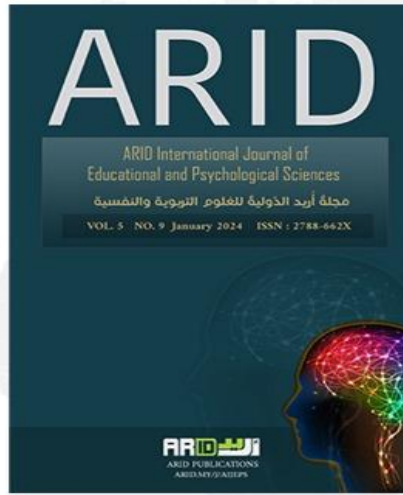
مجلات علمية تهدف الى الرقي بالمستوى العلمي
للناطقين باللغة العربية

WWW.ARID.MY

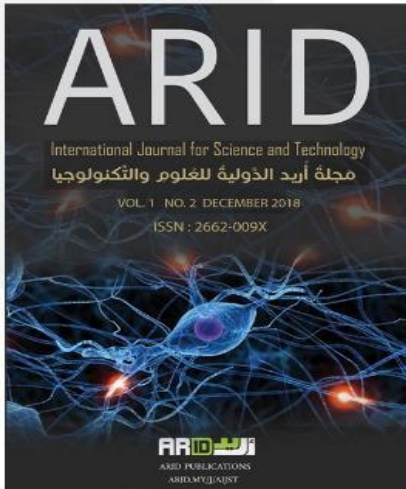
مجلة أريد الدولية لقياسات
المعلومات والاتصال العلمي



مجلة أريد الدولية للعلوم
التربوية والنفسية



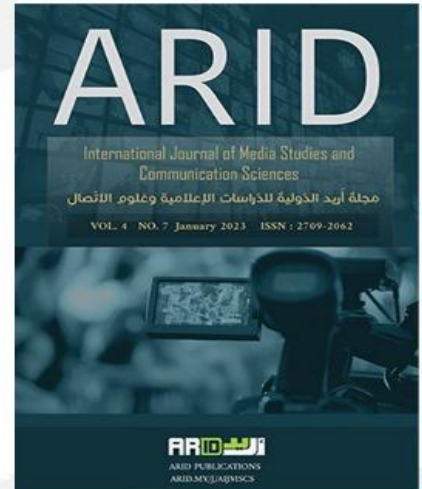
مجلة أريد الدولية للعلوم
الإنسانية والاجتماعية



مجلة أريد الدولية للدراسات
الإعلامية وعلوم الإتصال

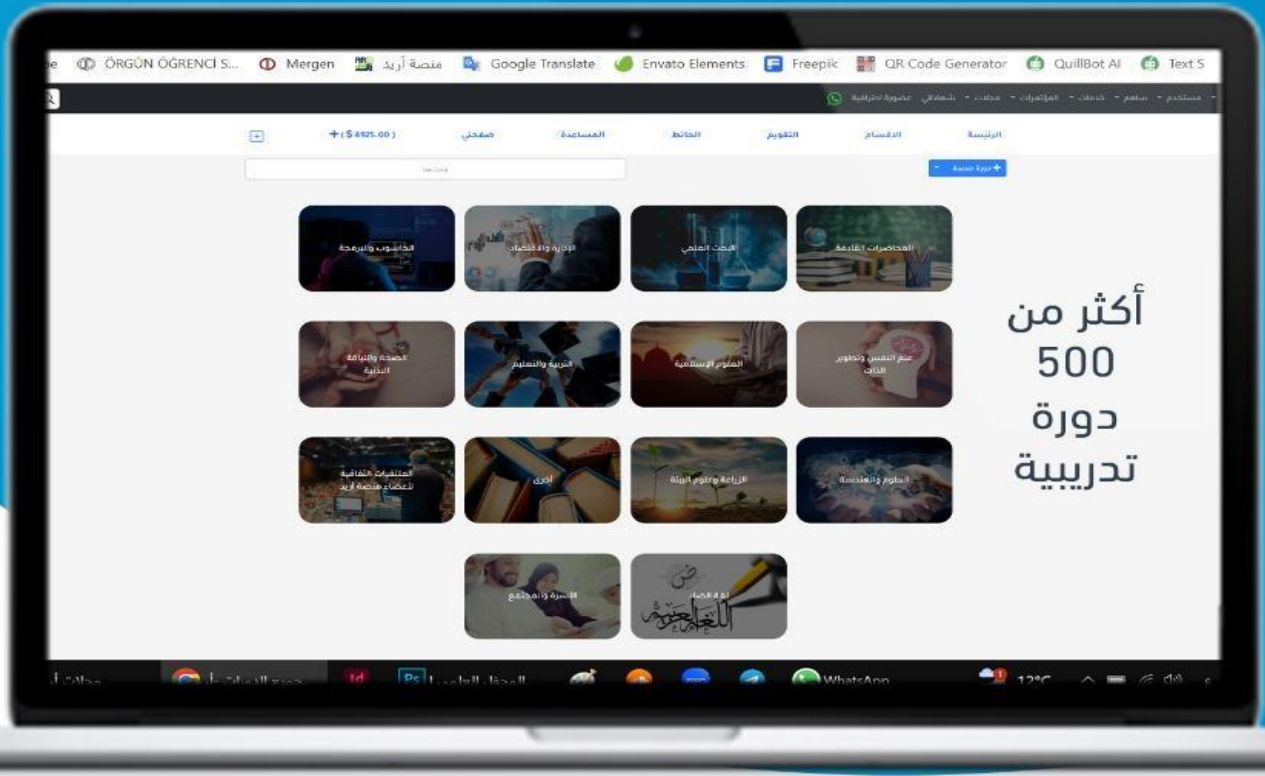


مجلة أريد الدولية للعلوم
والتكنولوجيا



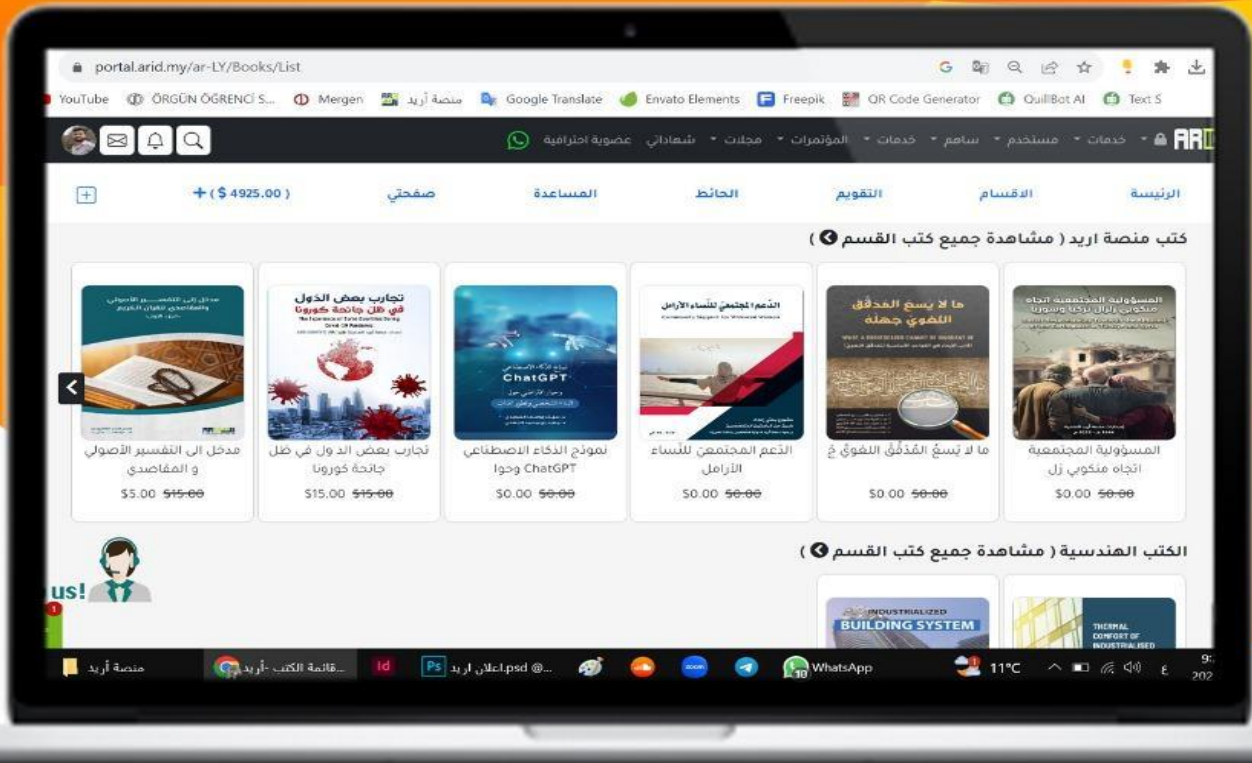
نظام عليم للتعليم الالكتروني في منصة أريد العلمية

أكثر من 500 دورة تدريبية ومحاضرة علمية



المكتبة الرقمية في منصة أريد

مكان واحد لجميع إصدارات أريد العلمية



الموقع الرسمي للمكتبة الرقمية

portal.arid.my/ar-LY/Books/List



أريد ARID
Arabic Researcher ID

WWW.ARID.MY

أوسمة منصة أريد العالمية

غُرباء في بيتي

Strangers in My House

يأخذك هذا الكتاب في رحلة ملهمة عبر حياة بروفييسور أبوبكر إبراهيم، المعروف بلقب "مستر جون"، رجلٌ تحدى كل الصعاب ليصبح أحد أبرز الأكاديميين السودانيين في لندن. على ضفاف البحر في الإسكندرية، يجلس أبوبكر في سن التقاعد، يتأمل حياته التي امتدت لأكثر من أربعة عقود كأستاذ جامعي في مدينة الضباب.

يتتبع الكتاب نشأة أبوبكر في قرية وادي حلفا النوبية في شمال السودان، حيث نشأ وسط عائلته الكبيرة وتلقى تعليمه الأساسي في ظل ظروف قاسية. من هناك، نتابع رحلته من الريف السوداني إلى مدينة الخرطوم حيث درس في جامعة الخرطوم المرموقة، ثم انتقله إلى لندن لتحقيق حلمه الأكبر في استكمال تعليمه العالي.

يستعرض الكتاب تفاصيل حياة أبوبكر الأكاديمية في جامعة لندن، حيث تميز بتفوقه الدراسي وحرصه على مساعدة الطلاب العرب، مما أكسبه احترام الجميع. بعيداً عن حياة المدينة الصاخبة، كان أبوبكر يعيش حياة متواضعة، مكرساً وقته للدراسة والبحث، ومتحاشياً ملذات الحياة الغربية.

من خلال قصته، يعكس الكتاب تجارب الجيل الذهبي من السودانيين الذين درسوا في بريطانيا بعد الاستقلال في عام 1956، وساهموا بشكل كبير في مختلف المجالات، متمسكين بجذورهم وتقاليدهم.

